الكتاب الثاني من تاريخ الرومان

١ - لنـدع روايتـي عن أعمال الامبراطـور جـون تتـوقف هنـاك، وكـان الامبراطور مـانويل الذي تسلـم الصولجان مايـزال شاباً، قد بـدأت لحيته بالظهـور، ولم يكن هياباً من تحمـل أعباء السلطة، كما انـه لم يسمح لأي شيء أن يكـون متراخيـاً، وبما أن أخـاه اسحـق كـان آنـذاك في بيـزنطـة، راودت الحشود شكوك، انـه لن يتمنع عن إحداث ثورة، وحيـث انه كان بطبيعتـه ميالاً للخصـام، تحركـه الانفعالات وتقـوده، فـإنه لابـدّ وأن يجد مسوغاً يتمسـك به من أجل الثورة، ومـع هذا لم يول مانويـل ذلك أدنى اهتمام، فقد مكث مدة ثلاثين يوماً كـاملة في ذلك المكان بعد موت أبيه، ولم يغـادره حتـى أكمـل بشكـل لائق الطقـوس المتعلقـة بـأبيـه (وذلـك بالاضـافة إلى أشيـاء أخرى منها تـأسيس دير في البقعـة التي أسلـم فيها روحه)، وأعدّ مايلزم من إجراءات أمنية بما يخص شؤون كليكية.

وكـان قبل ذلـك، أي بينما كان الامبراطـور جـون مايـزال حياً، كـان الانطـاكيون قـد شرعوا بـالتملص مـن سلطته، وقـد بعثوا إلى الامبراطـور مـانـويـل يطلبـون منـه مغـادرة حـدود الأراضي التـي أعلنـوا أنها تعـود بملكيتها إلى مـدينتهم، وهي الآن متملكة بـالقوة وبشكل غير عـادل من قبـل الـرومان، ولقـد كـان هـذا مـاقـالوه غير ان الامبراطـور تصـدى لهم وأجابهم قائلاً مايلي في دفاعه:

«من الواضح لكل انسان، أيها الـرسل، ان الانطاكيين لم يعانوا من أيّ ضرر صـدر عنا، وإذا سرق الانسـان شيئاً مـا من الآخـرين، عنـدها مـن العـدل أن يعيد إلى الآخـريـن ممتلكـاتهم، وعلى هذا لماذا لم تتخلـوا عـن

انطاكية للرومان من قبل، بل استوليتم عليها بالعنف وسلبتموها من أبي؟ ألم يستول عليها الترك أولاً عندما كانت مملوكة من قبلنا، ثم ماهذا الذي تطلبون تسلم ملكيته منا؟ ألا تطلبون مدينة انطاكية؟ إنها أولاً كانت مملوكة من قبل دولتنا (١)، وإذا كنتم لاتستحون من خرق اتفاقاتكم، لماذا أتيتم لتتهمونا بالاعتداء على حقوقكم، في حين نحن الذين ينبغي أن نطالب بتصحيح الأمور منكم؟ لكن ستكون هناك فرصة مناسبة لعرض مانحن بصدده من مسائل، والآن آمركم بمغادرة ماليس عائداً إليكم، وإنني سأزيد —ولن أنقص— ماوصل إلى يدي من أبي».

لقد كان هذا ماقاله للرسل. وحمل جثة أبيه على كتفه، وقام يعاونه النبلاء بأخذها بوساطة مسيرة، إلى السفن التي كانت متوقفة في نهر بيراموس Pyramos [سيحان]، وكانت هذه السفن ستعبر من خلال موبسوستيا Mopsueistia ومن ثم تأخذ طريقها إلى البحر، وعندما انطلقت الدرمونات [سفن حربية] إلى البحر من هناك، أمر بإزالة المعسكر وتولى بنفسه قيادة الجيش، وزحف غير هياب في وسط أراضي الترك(٢)، واندهش الترك رعباً، وكانوا معجبين بسرعة اندفاعه الزائدة، ولذلك لم يتجرأوا على التصدي للرومان، وسار الرومان وسط بلاد أجنبية كما ولو أنهم كانوا يعبرون أراضيهم الخاصة بهم، ولم يمض وقت طويل حتى وصل إلى الأراضي الرومانية، ووصلت السفن التي حملت بقايا الامبراطور إلى أرض بيزنطة، وخرج أعيان(٣) الرومان لاستقبالها بشكل رائع، ونقلوا هذه البقايا إلى الدير المقدس، الذي —كما سلف القول— قد أقامته الامبراطورة ايرين من قبل على اسم البانتوكراتور Pantokrator.

وكان الامبراطور مانويل مشغولاً برحلة العودة، حيث انه لم يكن يعلم شيئاً فيما يتعلق بالسيباتوكراتور [أخيه اسحق]، فإن الذين عهد إليهم

من قبل بشؤون الامبراطورية قد أوقعوه في شراكهم بخداعه، وذلك على أساس انه كان يخطط لاغتصاب العرش، ولذلك سجنوه في الأفنية الخاصة بالبانتوكراتور، ولم تحصل فائدة من هذه الخطة وأخفقت، وحمل اسحق مشاعر سيئة نحو بعض الذين كانوا مع مانويل، ولاسيما نحو الذين كانوا يديرون المراكز السامية، وكان من الممكن أن يقوم بالحاق الضرر بأهليهم وحواشيهم في بيزنطة، وفكر مانويل في الحقيقة في كيفية منعه ببراعة من تلك المحاولة، وهكذا ارتأى أن من الصواب ارسال مراسيم إلى بيزنطة يتهم فيها أولئك الرجال [مؤيدي مانويل] بتهمة الخيانة، ولذلك عاقبهم بمصادرة أموالهم وممتلكاتهم، وخيل إليه انه بهذه الطريقة سيفترض السيباتوكراتور أن هؤلاء الرجال قد تآمروا لصالحه هو ذاته كامبراطور، ولهذا سيرعى مصالحهم بشكل أفضل، حتى يكون قادراً على كسبهم ونيل مساعدتهم.

٢- لكن درجات العقلانية جاءت كلها بلا محصلات مغيّرة ، وبدون حاجة إلى مواجهة تقديرات الناس، لأن مانويل كان قد نوى هذه الأشياء، وقام بالكشف عن خططه للذين من حوله، وبالنسبة لكل من أخيه اسحق، وعمه، كان كما أسلفنا القول أولهما محافظ عليه ومحروس داخل الدير، وكان الآخر مقيداً بقيود حديدية، وكان عم الامبراطور مسجون من قبل أبيه، أعني أنه كان مسجوناً بأمرٍ من جون في هرقلية [ايرغلي] (٤) البنطشية، وكان اعتاد أن يعيش هناك بشكل لائق، وذلك بعدما كان قد نفي من قبل أخيه الامبراطور عندما كان على قيد الحياة، وبسبب مؤامراته ورغباته بالعرش مابرح ينقل من هذا المكان إلى ذاك، إلى أن وصل إلى حالة التعاسة هذه بالسجن بقرار من قبل الذين كانوا مسؤولين آنذاك عن بيزنطة، وذلك بعدما عرفوا أنه ينوي الثورة مجدداً، ولكن —كما قلت— جعلت الحكمة طريق الامبراطور إلى السلطة ليناً، فما ان وصل مانويل إلى بيزنطة، وعلم بهذه الأشياء التي تخص

السيباتوكراتور حتى بادر على الفور إلى استدعاء أخيه، فعانقه وحياه بطريقة أخوية، ثم استدعى عمه من المنفى، وألغى التهم التي كان أبوه [جون] قد عاقبه من أجلها من قبل بالنفي، وطلب منه المسامحة، ثم بعدما أعطى الجيش المال، أرسله إلى الوطن، ومنح كل بيت في بيزنطة قطعتين من الذهب.

وبسبب أن القسطنطينية كانت بلا بطريرق، رفع إلى عرش البطرقية ميخائيل الثاني كوركواس، الذي كان راعياً لدير قائم على الجزيرة التي يدعونها أوكسيا Oxeia [«شارب» سيوري أدا الحالية] وذلك اعتماداً على مظهرها(٥)، وامتلك حسبما قالوا ثقافة عامة بسيطة، وتعليماً دنيوياً برأس اصبعه، ولكن بالنسبة لأوليات الأخلاق ودراسة الكتابات المقدسة لم يكن أدنى من أحد من المرموقين بالمعرفة في تلك المنطقة، وبيديه توج فيما بعد مانويل بالتاج الامبراطوري في الكنيسة، ثم إنه بعدما قدم مائة وزنة من النقود الذهبية ووضعها على المذبح، غادر مخلفاً الشهرة بكرمه، والتعظيم في فم كل انسان، وأمر منذ ذلك الحين فصاعداً بمبلغ سنوي قدره مائتي وزنة من الفضة من القصر إلى رجال الدين، وقد دعوا هذا: المال الاضافي.

٣- هكذا كانت بداياته في المنصب، وبما انه كان متشوقاً للانتقام من ريموند أمير انطاكية، بسبب جرائمه التي اقترفها ضدّ أبيه (ولأنه لم يقم بعد بفرض الغرامات المستحقة عليه، ولأنه كان بالطبع مشغولاً بأمور أعاقت زحفه) أرسل قوة ضده بالبر والبحر [حوالي١١٤٤] (٦)، وقاد هذه القوة أندرونيكوس وجون اللذان أرجعا نسبيهما إلى الكونتو ستيفانيو Kontostephanoi ، وكان معهما برسق(٧) الذي كان ضليعاً في فن الحرب، وقاد القوة البحرية ديمتريوس الذي كنيته براناس وعندما وصل برسق والكونتوستيفانيونين حدود كليكية، استطاعوا خلال مدة وجيزة أن يستردوا الحصون التي كان الانطاكيون قد سلبوها من الرومان،

ودخلوا في مواجهات مع ريموند فأرغموه على التراجع، وقتلوا عدداً كبيراً من أتباعه، لكن كيف حدث ذلك؟ هذا ماسأبينه لكم:

عندما استولى الرومان على الحصون المذكورة، اقتربوا من مدينة انطاكية بلا مقاومة، معاملين كل ماوجدوه أمامهم بمثابة غنائم من المسينيين(٨)، وعندما رأى ريموند الرومان يقتربون، بقي هادئاً خلف الأسوار، وبعدما قاموا بالاستعداد زحفوا من هناك (لأن مامن أحد تقدم ضدهم) ثم قام هو سراً باتباعهم عازماً على مهاجمتهم من الخلف، ووصل الرومان إلى بقعة رأوها مناسبة لامضاء الليل،فأقاموا معسكرهم هناك، وبعدما مركز ريموند جيشه في مكان مناسب، زحف مع عدد صغير من رجاله ليتجسس ويستطلع أخبار العدو، ولم ينج اقترابه من ملاحظة الرومان، فقد تصدى له بعض الذين كانوا قد خرجوا لجمع المؤن والأسلاب، وكان ذلك غير بعيد عن المعسكر، ولذلك أسرعوا باخبار القادة، وبما أن الوقت كان ليلاً، أقاموا الحرس وانتظروا، وعندما لم يكن اليوم التالي قد جاء، وقبل انبلاج الفجر، عادوا، وخططوا للانقضاض على الذين كانوا مايزالون معسكرين مع ريموند، لكن ريموند لم يكن بالانسان غير الحذر، ففي أول الفجر، وبعدما عمل مارآه لائقاً مع أتباعه، تركهم هناك، وزحف هو للاستطلاع، ودون أن يتوقع سقط أمام الرومان، فأدار ظهره وفرّ، وبعث إلى بقية جيشه يأمرهم بالانطلاق من هناك بأقصى سرعة ممكنة، غير أن القوات الرومانية وصلت بسرعة مساوية، وطاردتهم وأوقعت بهم مذبحة كبيرة، واستمرت المطاردة حتى أبواب انطاكية، وأحاطوا بالعدو بصعوبة حتى أن ريموند نفسه دخل إلى المدينة خلال الليل.

وما ان أنجز الذين كانوا مع برسق كل هذا ضد ريموند حتى انطلقوا نحو كليكية، هذا ووصل آنذاك ديمتريوس براناس مع الاسطول فنهب المنطقة المحازية للبحر، وأخذ حشداً كبيراً من الرجال أسرى، وأحرق

كثيراً من السفن المحلية التي كانت راسية عند الشاطيء، حتى أن واحداً كان يجمع الأموال العامة لهم وقع أسيراً بأيدي الرومان، وعندما سمع ريموند بهذا، جاء إلى هناك وهو عظيم الحنق، لكنه عندما لاحظ أن السفن الرومانية قد أقلعت من هناك، عاد خائباً، وحيث أن البحر لم يكن موافقاً للرومان، فانهم احتاجوا إلى عشرة أيام للملاحة في تلك المنطقة، وعندما قلّت لديهم المياه، تقدموا نحو الساحل بشكل غير متوقع، ونزلوا إلى اليابسة فهزموا العدو، ونهبوا اثنين من الحصون الساحلية، وملأوا سفنهم بالقدر الممكن من الخمر وماء النهر، ثم واجهو ريحاً طيبة فأبحروا نحو قبرص.

وأرغمت هذه النوازل ريموند على الرحيل إلى بيزنطة [١١٤٥]، وعندما وصل إلى عند الامبراطور لم يوله في البداية أدنى انتباه، وذلك حتى استجار بضريح أبيه الامبراطور، وهنا كسب عفوه، ثم أصبح ريموند واحداً من أتباعه(٩).

٤-وتزوج في هذه الآونة [كانون الثاني١١٤٦] الامبراطور من [بيرثا—] ايرين [السولزباكية Sulzback] التي كانت مخطوبة له قبل أن يكون امبراطوراً، وهي فتاة قريبة من الملوك، ولم تكن أدنى من أي فتاة أخرى في محاسن الأخلاق القويمة والروح(١٠)، وفيما يلي ماروي عنها:

عندما وصلت للمرة الأولى إلى بيزنطة[١١٤٢] التقى بها عدد من النساء النبيلات المتميزات، وكذلك الفتاة التي كانت متزوجة من الامبراطور ألكسيوس [أكبر أبناء جون] وكانت [بيرثا] مرتدية رداء من الكتان، وبالنسبة للأخرى فقد كانت ترتدي ثوباً أرجوانياً موشى بالذهب، هذا وجعلها لون ثوبها الأرجواني الداكن تلاحظ من قبل القادمة الجديدة، فاستوضحت على الفور من الواقفات هناك سائلة:

من هي هذه الراهبة التي تتكلـم بشكل فيه أبهة عظيمة، وبدا أن هذه الاشارة ليست طيبة أبداً بـالنسبة للمستمعين، ولقد جاءت الخاتمة مسرعة ليس بعد وقت طويل(١١).

وشغلـت منطقـة آسيا القـائمـة عبر المضـائق [البوسفـور] الامبراطـور، الذي كان يبحـث عن كيفية جعل حـدود بيثينيا بإمكانها أن تتـوقف عن كونها نقـاط دخول بـالنسبة لأمة الترك، ذلـك انه بحكـم أن التحصينات التي كانت تصـد فيما مضى أعمال خرق البرابرة قد أهملت رعـايتها، فقد غدت تلك المنـاطق هناك منافـذ سهلة لوصول الترك، لكـن في السنوات الأخيرة بات هذا أكثر أعمال الامبراطور الطموحـة فائدة، حيث أقام عدداً من المدن هنـاك، وقرر في هـذه اللحظة انشاء حصـن في المنطقة المعـروفة باسم ميـلانغيا Melangeia [أو ملاغنيا على سكاريـا شرقي ازنيق] (١٢)، وبينما كان هذا العمل جـارياً، روي له أن مرضاً متقدمـاً يوحي انه وبـاء لايمكن التغلـب عليه قـد أصاب مـاريا الابنـة الأكبر للامبراطـور جـون، التـي كـان القيصر جـون روجـر(١٣) قد تـزوجهـا وبعـدمـا أقـام الامبراطور مـافيه الكفـاية في المكـان لإكمال الأعمال، أخذ الطـريق نحـو بيزنطة.

لكن في الوقت نفسه كانت قضت قـدرها، وكانت سيدة رفيعة النفس كثيراً، كما وكـانت ذات مظهـر معبر تمامـاً. وبـوصولي إلى هـذه النقطـة في روايتي، جئت إلى ذكـريات تتعلق بأعمال هذه المرأة التي مـاتزال تستحق الاعجـاب، لأنهم قالـوا إن القيصر روجر رنـا ببصره على الامبراطوريـة، في الساعـة التي تلـت وفاة الامبراطور جـون، فقبل أن تستقبـل القسطنطينية الامبراطور الجديد، أحـاط نفسه بعدد كبير من الميليشيـات الأخرى، وربح بشكل خاص إلى جانبـه رجلاً ايطالياً، وكان من أبناء جلدتـه من جانب أبيه، وذلـك مع أتباعـه الذين بلغ عـددهم أربعمائة، وكان هـذا الايطالي متميـزاً ومشهوراً بنسبـه، إنه روبـرت أمير كابـوا Capua ، وهي

مدينة ايطالية كثيرة السكان ومزدهرة، وكانت مناسبة اقامته في بيزنطة كما يلي:

كان روجر الثالث، الذي كان وقتذاك الطاغية المتصرف بصقلية، والذي سنقدم عنه مادة كبيرة في الكتب التالية عندما سنكتب عن الحروب الايطالية، كان شديد الرغبة في تملك امارة كابوا، وضغط بالحرب كثيراً على أميرها، الذي عندما قهر من قبل، أخذ الطريق إلى بيزنطة، وبناء عليه لقد كان هذا ماصنعه القيصر جون روجر، وبعد جهود مضنية اقتنعت زوجته انه مصرّ ومتشوق إلى اغتصاب العرش، ولن يتزحزح عن غايته مهما حدث، فاستدعت إليها الذين كانوا مسؤولين عن الشؤون العامة، وأخبرتهم بالقضية، وقالت لهم:

«إما أن تسلموا أنتم لي زوجي، أو تتولون القيام بما يحفظ المملكة لأخي»، ولقد كان هذا ماقالته، لكن لسبب يبدو تعلق ببعض الأشغال أخذوا القيصر بالخديعة تماماً، وحملوه إلى إحدى الضواحي قرب بيزنطة، وعندما وصلوا إلى ذلك المكان، تركوه يقيم هناك ثم عادوا إلى المدينة.

٥- هكذا كانت ماريا، وعندما روي خبر مرضها إلى الامبراطور، توجه إلى بيزنطة، وعسكر بعد وقت قصير[١١٤٦] في السهول القريبة من ريندا كوس Rhyndakos [أورهانلي] حيث وجد حصناً كان الامبراطور جون قد أنشأه منذ وقت قريب، وكان اسمه لوباديون Lo-padion [أو لابات قرب قراكابي]، فهذا ما أطلقه عليه العامة(١٤)، وجمع هناك جيشاً، لأنه نوى غزو الأراضي التركية، ذلك أن الترك كانوا في الوقت ذاته قد خرقوا هدنتهم مع الرومان، ونهبوا براكانا Prakana واستولوا عليها، وهي مدينة ايزورية تقع إلى الغرب من سلفكي(١٥) Silifke، وأنزلوا كثيراً من الأضرار الأخرى بالرومان، وبعدما استعد بقدر الامكان،انطلق من هناك، وتقدم مسرعاً،

عاقـداً العزم على تـدميرهم من الشبـاب فصاعداً، وذلـك عندمـا ينقض عليهم بشكل مفـاجىء، ويأخذهم على حين غرة، ومهما يكـن من أمر، لم يخفق تمامـاً بخططه، وفي الحقيقة لم يستخـدم يديه في ذلـك الصراع، لأنه بعدما عاث بشكـل سريع بميسيان أوليبموس Mysian olympus [أولوداغ] ووصل حتى بيثيكاس Pithekas (١٦)، حيث أنشأ حصناً قـوياً، زحـف أثناء الليـل خـلال الجبال هنـاك، التـي هي عـالية لا بـل بالحقيقـة شاهقة(١٧)، ونـامية أكثر مـن اللازم، وعنـدما امتلأ رأسـه من الضباب المنبعث فوق الأشجار، سقط فجأة، وكان غير قادر على النهوض ثانيـة، وقد بقـي حتى حوالي منتصـف الليل بـدون وعي، غير أنـه تحسن بعـد ذلك قليـلاً، واستعاد وعيـة في اليوم التـالي، ومع ذلـك بقي هـادئاً، وأرسل شطراً منـاسباً من الجيش، أرسلـه على كل حال مع القـادة لتنفيذ واجباتـه، وعندما اصطـدموا بقوات العـدو على مقربـة من هناك، تفـوقوا عليه بالقتـال، ولذلك استحوذوا على كميـات هائلة من الغنـائم، وعادوا من هناك مع دلائل النصر. ولقد كان هذا ماأنجزه الامبراطور.

وانقـض الترك، الـذيـن أعدوا حملـة كبيرة، آنـذاك على أراضي تـراقيـة [بندتراقية في وسط غربي آسيـا الصغرى]، ولم يكن هناك من يتصدى لهم (ذلك أن تيودور الذي كنيته كـونتوستيفانوس Kontostephanos ، الذي أرسل لهذه الغـاية إلى هناك من قبل الامبراطور، لم يكـن قد تمكن من جمع جيـش حتى يحافظ به عليـه)، ومضى الترك ينهبون وصـولاً حتى إحدى المنـاطق القريبة مـن البحر التي اسمها كلبيـانون Kelbianon [وادي كيستر Csyster] (١٨)، وعـادوا وهـم يسـوقـون أمامهـم أسـلاباً كثيرة،وعنـدمـا سمع الامبراطـور بهذا لم يستطـع أن يحبس نفسـه، فبعدمـا أجرى استعداداتـه بكل سرعة، وانطلق بسرعـة وافية نحو قـونية، قام بـاخبار السلطان (مسعود) صـاحبها برسالـة، وجاء نص الرسـالة كما يلي:

«نحـن نرغـب أن تعلم أنـك اقترفت أشيـاء أثارت هجـومنا عليـك، فأنت نفسـك الذي سلبت منا بـراكانا Prakana، التي ليست عائدة إليـك، وأنت نفسـك أغرت مـؤخـراً على الأراضي الرومـانية، كما أنـك لم تتمنع عـن المقاتلـة بالطـريقة نفسهـا مع يغـي —بسان [بـن دانشمند] (١٩)، الذي هو حليـف الرومان، ومع عدد آخر كبير مـن المقدمين هناك، إنك رجـل عاقـل، وعليك أن تـدرك أن الرومـان لن يسمحـوا لأنفسهم بـالاغضاء عـن هـذا، ويبقـى، أنك ينبغـي —بعـون الـرب— أن تدفـع الغرامة لهذا مرات عـديدة، وعليك إما أن تتوقف عـن هذه الحماقات، أو أن تكون مستعداً بالحال لمقـاومة الرومان»، هكذا على هذا الشكـل كانت الرسـالة، وبعدما قـرأ السلطان الرسـالة أجاب كما يلي: «تسلمنا رسـالتك أيها الامبراطـور العظيم، وقـد أعددنـا أنفسنـا حسبما أمرت، ثـم يتوجـب عليك أن تـأمر زحفـك ألا يؤخـرنا بطـول الاتصالات، ويبقـى فيما يتعلق بسير الأمور، فتلك ستكـون مسؤولية الله ومسؤوليتنا، ولتكـن فيلوميلون Philomilion [أق شهر الحاليـة] المكان الـذي سنتصادم بـه، لأننا معسكرون هناك في الوقت الحاضر».

على هـذه الشـاكلـة، وبصـورة عـامية متـدنيـة، ردّ السلطـان على الامبراطور، وقـد بقي السلطان مـع الجزء الأكبر من الجيش التركـي هناك في فيلوميلـون، حيث كـان معسكراً من قبـل، وكان قـد انتقى بعضـاً من جيشه، وأرسل هذا البعض لاعتراض تقدم الـرومان، واشتبك الترك لوقت قصير مـع الامبراطـور، وكـان ذلـك قـرب مـدينـة أكـرنـوس Akrounos [أفيـون— قـراحصـار الحاليـة]، وكـان الامبراطـور معسكـراً في مكان يـدعى تـل كالـوغرايـا Kalograia، وعـانى الترك مـن هزيمـة ساحقـة، وعادوا مثـل اللاجئين إلى السلطـان، وكان بين الذيـن باتوا طعمة للسيف الحيري(٢٠)، وكانـوا مشهورين بين الأتراك، وأصـاب الرعـب السلطان، بسبـب الفاجعـة، ولذلـك لم يبق في

المكـان لتحضير أي شيء، أو التحضير لأي شيء ضروري، بل غـادر فـاراً من هنـاك، ولدى معرفـة الامبراطور بذلـك عزم على الاستهزاء بـه، لتهوره السالف ولخذلانه وجبنه الكامل فيما بعد، فكتب إليه كما يلي:

«عليك أن تفهم أيها السيد الشريف التالي جيداً: إنه مهما بلغت درجة عارك بسبب جبنك، لقد ازددت عاراً بسبـب قحتك التي تقدمت ذلك، ثـم إن ذلك لم يمكـن رحضه مـن قبل الآخـرين في القتـال، وحيث بـدا وكـأنك نسيـت تمامـاً فخـارك المبكر، ولم تقـم وزنـاً لما كتبتـه مؤخـراً إلى امبراطـوريتنا [بيـزنطة التـي هي مصـدر جلالتنـا] بل هـربت إلى حيـث لاأدري، انتبه إننا نذكرك: إذا كنت لـن تنتظر قدومنا إلى فيلوميلون حسبما أعلمتنـا يبقـى على ذاتـك الشريفة والكـريمـة أن تسرع وتتجـاوز دنـاءة جبنك». مثل هذه الكلمات كانت برسالته.

ووصل الامبراطور إلى فيلـوميلون، واستولى عليها عنوة، وأحـرقها جميعاً، وقد وجد هناك بعض الرومان الذيـن كانوا في الاعتقال منذ وقت طويل، فحرر البؤسـاء هؤلاء من أغلالهم، وسمح لهم أن يروا النـور والحرية، وكان الترك عنـدما اقترب الامبراطـور أولاً واثقين من قـوتهم، فقـرروا عدم نقـل هؤلاء الرومان إلى أي مكان آخر، لكـن عندما أرغمهم الخوف، ليس فقط لم يعيروا الأسرى الرومان أي انتبـاه، بل عدّوا أن ممتلكاتهم أقـلّ قيمة من أن ينظروا إليها.

وعندما أحضرت الرسـالة إلى السلطان، إما انه شعر بـالارباك، أو كان يخطط لشيء آخر، لذلـك تراجع، ووصل بسرعة إلى مكان يـدعى بالتركية أندرخمان(٢١)، وعسكر هناك وعندمـا سمع الامبراطور بهذا قام على الفور بصف جيشه، وعبر مدينة أدرنة (لأن ذلك الاسم انتقل إلى ليكونيا Ly-konia نفسها) وعسكر في مكان يـدعى غيتا Gaita [أكيت](٢٢)، وعبـأ في اليـوم التـالي قـواته [لأن الجيشين كـانـا معسكـريـن على

مقربـة] وزحف، وعندمـا اقترب من الترك، بدأ القتـال، ولم يستطع الترك الصمود أمـام هجوم الـرومان، فانعطفـوا للتراجع، وطـاردهم البيـزنطيون وقتلوا بعضهم وأخذوا بعضهم الآخر أسرى.

ولم يتـوقف السلطـان عـن الفـرار حتى وصـل في فـوضـى إلى قونيـة، فاندفع إلى داخلهـا واعتصم خلف أسوارها، وما ان شعر بـالسلامة حتى تصور خطة كما يلي: هـو لم يتجرأ على البقاء في الداخـل، خشية أن يصبح محاطـاً به مـن قبل المحـاصرين الـرومـان، فذلـك سيجعله عـاجزاً عـن الظهور، وبشكـل عام، وبـدون أن يعرف إلى أي نقطـة من الحظ ستصـل نهاية الحرب إليها، فقـد ارتأى انه غير مفيد لـه أن يعاق في مكان محاصر، ولهذا وضـع قسماً مـن جيشـه شحنـة في المدينـة، ثـم شطـر المتبقـي إلى شطرين، حيـث مركز أحد الشطـرين على السفوح خلف المدينـة، وأبقى الشطـر الآخر معـه حيث قـاده صاعـداً نحو اليمين، فقـد اعتمد بشكـل خـاص على قـوة الجبـل الممتـد بين قونيـة وحصـن قبـالـه Kabalh (٢٣).

٦- وكان الترك على هذه الوضعية، وعندمـا وصل الامبراطور إلى قباله، كان متحمسـاً حماساً عظيماً، وشـديد الـرغبة في مهـاجمة السلطان، ونظـراً لأنـه كـان في البدايـة غير قـادر على الفـور معـرفـة أين يمكـن أن يكـون مسعود، تمهل قليلاً وتريث عن الهجـوم، وبوساطة الخبرة العسكرية لاحظ أن مسعوداً كان يقود الفرقة المتمركـزة على يمين المدينة، (لأن مانويل كان في هذه المسـائل أبرع من أي واحـد آخر) وقام على الفـور بامساك حـامل الرايـة، وسحبه بـوساطـة المقود، وأداره نحـو تلك الفـرقة، وعنـدما تـردد الجيـش الرومـاني، ونظر إلى الحركـة بدهشـة كبيرة، وتساءل لماذا عليـه أن يرغب بالمغـامرة بشكل غير حذق وضدّ مثل هـذه القوة غير المتفوقة (لأن انعدام ظهور ذلك الجيش قد أدهشهـم، وبناء عليه اعتقدوا أن هؤلاء هم مقدمة الفيلـق الذي كان مع السلطان، والذي ربما كـان مختفياً في مخابيء

الجبل)، ولأن الرومان كانوا هكذا مندهشين، خفف الامبراطور من اندفاعه قليلاً وقال: «أيها الرومان لاتدعوا حيل البرابرة تحول قوة انتباهكم إلى خوف، وبما أنه هناك نقص في الرايات في الجيش المشاهد أمامنا، عليكم ألا تتخيلوا أن الرايات في مكان آخر مع قوة أخرى، لأنني لاأعتقد بوجود فرقة أخرى من العساكر قد بقيت للأتراك،وأن راياتهم قد وضعت بالخفاء فوق هناك في الأماكن الكثيفة، وذلك بغية اخافتنا بمظهر وجود حشود، عليكم ألا تحتاروا وتندهشوا أمام البربري لعدده، بل عليكم ازدراء ضعفه، ولايتعايش الصدق بشكل طبيعي مع التخيلات، وعلى كل حال إنني سأنطلق مع أكبر عدد من الأتباع للاشتباك معهم فوراً، وعليكم أنتم بعدما تنظموا صفوفكم أن تلحقوا بي مع بقية الجيش، خشية الوقوع في كمائن العدو».

وما أن أنهى الامبراطور كلامه هذا، حتى اندفع للانقضاض على العدو، وتوضع هو نفسه على اليسار، لأن ذلك كان يواجه قلب جيش الأعداء، وحيث وجد أكبر عدد من خيرة الترك، واعتقد أن الترك فقدوا شجاعتهم أثناء سير القتال، فعندما رأوا سيوف الرومان اضطربت صفوفهم وتفرقوا في فوضى، وكل واحد كان راغباً في أن يكون أول الناجين من هناك، وراجت اشاعة أن السلطان كان موجوداً هناك، وأضاع الرومان وقتاً كبيراً بالانشغال في مطاردة الفارين وهكذا انشغلوا بهذا العمل.

أما بالنسبة للجيش الروماني الآخر الذي كان —كما قلنا— موجوداً في الساقة فقد زحف فوقع أثناء زحفه بكمائن غير متوقعة، فانعطف وأعطاهم ظهره، ثم قام الآخرون بالانقضاض عليهم، وأعني بهم الذين تشكلت منهم شحنة قونية، (فقد تشجع هؤلاء بسبب أن الامبراطور كان يقوم بعمليات المطاردة بعيداً عن قونية لذلك خرجوا مهاجمين) وفعل الشيء نفسه الترك الذين كانوا متمركزين على السفوح خلف المدينة،

وبدأ الرومان يتخبطون وتدب بين صفوفهم الفوضى، وما ان سمع الامبراطور بهذا حتى بادر بارسال قوة من حرسه إليهم، عبر أسرع الطرق وقادهم بيرهوجرجيوس Pyrrhogeorgios ، وكان رجلاً نشيطاً وفعالاً، وهو الذي سيشرّف فيما بعد برتبة أمين البلاط(٢٤)، وقادهم أيضاً كوروب Choaroup، الذي كان من عبيد الامبراطور، وكان من الذين يرتدون الثياب الأرجوانية، ومجدداً كانت القوة المنهكة تماماً في وضع ليس أقلّ رعباً.

وقرر الامبراطور —الذي كان ذكياً جداً في ايجاد المحتاج إليه، وبارعاً في استنباط ماينبغي صنعه— أن المسألة تحتاج إلى المهارة أكثر من القوة، فاستدعى واحداً من الجنود، واسمه بمبتزيوتس Bempitziotes ، وأصله من أدرنة، وأمره أن يخلع خوذته من على رأسه، وأن يلوح بيده بها في الهواء في كل اتجاه من حوله، ليعلن للجيش مايشبه أسر السلطان، وعندما أنجز هذا استردت القوات الرومانية شجاعتها، ودفعت بالعدو إلى الخلف، هذا العدو الذي كان يضغط عليهم بشدة، فغالباً ماتفوقت هكذا خطة بارعة على قوى مضاعفة، ومهارة رجل واحد كانت أعظم قوة من عدد من الدروع.

ونظراً لحلول الظلام سريعاً، عسكروا هناك، وانطلقوا من هناك عند الفجر، وعسكروا قرب قونية، وبعدما أحاطوا بها، تصور مانويل انها بعيدة النوال، كما ان اشاعة راجت ذلك اليوم محذرة أن أمم الغرب، شرعت بحكم طباعها الموروثة عن أسلافها بالعصيان، وأنها ستقوم بغزو الأراضي الرومانية بكامل القوى، لذلك تخلى الامبراطور عن الحصار، معتقداً انه يحتاج وقتاً أطول، واستعدادات أعظم مما كان لديه في تلك اللحظة، وبعدما نهب وخرّب تلك الأحواز، غادر من هناك(٢٥).

وروي انه بينما كان الجيش الروماني يعيث فساداً في قبور الأتراك

خارج المدينة وينبشها ويخرج أكبر عدد من الجثث منها، لم يرغب الامبراطور، على الرغم من ضغط اللحظة بالاساءة إلى مكانة أم السلطان، فأمر بحفظ رمادها وبعدم ذروه، وأعلن باختصار أنه يتوجب على الرجال العقلاء الاستحياء لدى فواجع النبلاء، وقام بكتابة رسالة لم تكن بعيدة عن اللطف، وأرسلها إلى زوجة السلطان، وقد جاء بالرسالة مايلي:

«نرغب إليك أن تعرفي أن ابن امبراطوريتنا(٢٦)، السلطان حي ومازال باقياً، ذلك انه فرّ من شدائد الحرب»، وكانت هي، على كل حال، قد أعدت حوالي الألفين من الأغنام وكميات كبيرة من الثيران، وأنواع أخرى كثيرة مما يؤكل، لتستقبل بهم الامبراطور وللترحيب به،لكن بما أن الجيش الروماني قام —كما سلف الذكر— باحراق أماكن السكن خارج المدينة، لم تنفذ مانوته. وهكذا كانت هذه المسألة.

وعندما شرع الامبراطور بالانسحاب، أرسل ثانية رسالة إلى السلطان، وقد جاء نصها كما يلي:

«لقد طلبناك مراراً، غير اننا لم نستطع التصادم معك، فقد فررت دوماً، وتلاشيت كما يتلاشى الظل، ولكي لانبدو كأننا نقاتل ظلالاً، نقوم الآن بالمغادرة، ونحن في طريقنا إلى الوطن، وسنعود إليك بالربيع باستعدادات أعظم، وعليك التنبه وعدم الفرار كلياً بطريقة غير لائقة بك».

٧- هكذا كانت الرسالة، ووصلت قوى كثيرة من الأتراك الذين سكنوا وراء قونية، ممن كانوا تحت حكم المرحوم ابن دانشمند(٢٧)، لقد وصلوا متحالفين مع السلطان، والتحقوا به، واعتماداً منه عليهم لم يرغب الآن بالفرار كما فعل من قبل، بل انه ما ان ضمّ صفوفه حتى سارع نحو قتال الرومان، الذين كانوا قد وصلوا إلى مكان اسمه بلسان

البرابرة زبـريلزمـاني Tzibrelitzemani (٢٨)، وهو مكـــان كان الـوصول إليـه أصعب مـن أي مكان آخـر، ليس فقـط بالنسبـة للرجـال المنظمين على شكل صفوف، بل لم يكن من السهـل الجواز به للمسافرين على شكل جماعـات صغيرة، وكان الجيش يعـاني من مصاعـب جمة حول المعسكر، لكـن الامبراطور، مدفـوعاً بحداثـة سنه، وبما انه لم يمـض وقت طويل منـذ اتخاذه زوجة، رغب في ذاته في تحقيق شيء مـا خلال القتال، وذلـك تماشياً مـع عادات الـلاتين، لأن الـلاتيني الـذي اتخذ زوجة منـذ وقت قريب، إذا لم يظهر بمظهر النبل، لايجلـب نعمة عامة، ولذلك وضع في اثنين من الشعـاب الجبلية من على يمينـه وشماله جماعـات على شكل كمينين، وتألـف أول الكمائن من الـذين كـانوا أقـرب الناس إليـه نسباً، وكان بينهم أشد الناس لصوقاً به والذين تزوجوا من اخواته(٢٩)، وحوى الثاني على وحـدتين عسكريتين، قادهما نيكـولاس الذي كنيتـه أنجيلوس Angelus ، وكـان رجـلاً شجـاعـاً في العمـل ومـزوداً بكثير مـن الشجاعة، وأمـرهما بالمكوث هناك هادئين حتـى يرياه يقوم بـالهجوم ضد العدو.

واستجـاب على غير رضى لطلبـات أخوه اسحـق وجـون [أكسوكـوس Axouchos]، دمستـق قوات الشرق والغـرب(٣١)، فمضـى معهما إلى بقعـة حيـث رأى بعـض الـرومـان ذاهبين على شكـل جماعـات لجمـع الأعلاف، ووضع هناك سلاحه تحت ردائه خشية أن يعرف من قبل الترك نظراً لما تمتعـوا به مـن سمات استطلاعية بـارزة، وانتظر قـدوم بعض الترك الذيـن قد يأتـون لإحداث بعض الأضرار، لكـن حيـث مامن واحـد منهم كان باديـاً له في أي اتجاه، بعث فأحضر واحـداً من جنود الرومـان واسمه بوبكـس (أبو بكـر) (٣٢)، وكان تـركي المولـد، وامتلك شجـاعة عظيمـة ونشـاطاً كبيراً، وأمـره أن يتقـدم، ويفتش بحـذر علّـه يـرى أياً مـن الترك يقترب، وانطلق على هـذا الأساس، وعاد بعـد قليل ليـؤكد انه لم يـر أكثر

من ثمانية أتراك، وهنا ترك الامبراطور أتباعه في كمين، ومضى ومعه أخوه والدمستق نحوهم بأقصى سرعة ممكنة، وذلك بعدما أراهم أبو بكر الطريق، وغضب ختنه زوج أخته —الذي تمّ تجاوزه— غضباً شديداً، لأن كل واحد منهم، لابل هم جميعاً ربطوا أنفسهم وأوثقوها بأيمان مخيفة، قضت انهم سيلتحقون عن صدق بالامبراطور (الذي لم يرغب بذلك) ويساندوه في هذه المعركة، إذا كانت هناك معركة.

ولم يكن الامبراطور قد اشتبك مع الأتراك الذين شوهدوا، وقد تبين أن عددهم حوالي الثمانية عشر، وكان متشوقاً ومتحرقاً لقتالهم، لكن خشية منه أنهم ربما قد يهربون لأنهم كانوا مجهزين بشكل جيد، (وحيث انه كان مايزال واقفاً بعيداً عنهم لم يكن قادراً على الاشتباك بهم عن قرب) فقد بذل جهده كما يلي: أمر أبا بكر بالمضي حتى يكون قريباً جداً منهم، وعندما يرى انه اقترب منهم، يفرّ بكل ما أوتيه من قوة حتى يصبح قريباً منه، وهكذا فعل أبو بكر ماأمر به، وعندما أخذ البرابرة يطاردونه، هرب، ولم يهرب هروباً كاملاً من العدو، بل راوغه وأعطاه بعض الأمل في أسره، ثم فرّ، وبذلك استدرجهم إلى قرب الامبراطور.

ومع ذلك لم ينجح الامبراطور نجاحاً كلياً في خطته، لأنهم ما إن رأوه، حتى غادروا راكضين بسرعة أكبر مما أظن، ولكن عندما التقوا بحوالي خمسين آخرين كانوا قادمين من خلفهم، تشجعوا بسبب عددهم، وقدروا ان بامكانهم التصدي له إذا هاجمهم، ومهما يكن الحال، فإن الذين كانوا مع مانويل عارضوا بشدة الاشتباك (لأنهم قالوا: إنهم باتوا بعيدين جداً عن الجيش)، ومع هذا لم يضع الامبراطور الوقت بل هجم بسرعة قصوى، ورافقه السيباستوكراتور [أخوه اسحق] وركب محازياً له، لكن عندما لم يعد قادراً على التقدم —لأن فرسه كان منهكاً— تخلف وراءه، ونظراً لخوفه الشديد على سلامة أخيه، رجاه بحرارة كبيرة، وذكّره بزوجته وأولاده، ووبخه مانويل وانتقد رأيه المستخف به قائلاً: «حسناً

ياأخي العزيز، هل تظن انني ماعشت سأتركك في أيدي العدو؟ ليس أنت؟ فكر ولاتتكلم باستخفاف عن نفسك»، وعندما أضاف اسحق هذه الكلمات: «لكن ابق هنا، حتى أستطيع الالتحاق بك وأنت تقاتل البرابرة»، قال مانويل: «إذا أعطاني الرب سأعود مسرعاً إليك بعد الاشتباك، والآن انني أنوي أشياء أخرى، ومتلهف إلى أفعال جريئة جذبتني تماماً إليها». وقال هذا لأخيه واندفع نحو العدو. وعلى هذه الصورة سارت الأمور بالنسبة إلى الامبراطور.

وأما بالنسبة للذين ذكرناهم في الكمائن، فقد أرسلوا واحداً من نبلائهم واسمه كوترزس Kotertzes ليقف علي أوضاع شؤون الامبراطور وليعلم الأحوال، وأعاده الامبراطور مصدراً أوامره إليهم للقدوم بأقصى سرعة ممكنة، وما ان وصل مانويل إلى تلة مجاورة حتى واجه قوة تركية كبيرة وصل عددها إلى حوالي الخمسمائة، وزحف ليس بعيداً عنها، من خلفها السلطان ومعه الجيش كله، وما ان رآهم حتى قام على الفور بتسديد رمحه، واندفع مسرعاً نحوهم، فطعن كثيراً منهم وألقاهم أرضاً.

ووقف الترك بلا حراك، وكأن ألسنتهم عقدت وأصيبوا بالخرس، وعندما حدث هذا ظهرت القوة الرومانية التي سلف ذكرها، وكانت تشكل الكمائن، ظهرت على مقربة من الامبراطور الذي أرسل —كما ذكرنا— يستدعي رجالها، أما الأتراك الذين فهموا هذا وأدركوه فقد اختاروا قطعة من قواتهم وأمروا الذين كانوا في الساقة بالتصدي للرومان، المقتربين، وظنوا انهم طوقوا مانويل، وأدخلوه في الشبكة. ولذلك عملوا كما يلي:

غير أنه وقف مستنداً على رمحه، منتصباً على الأرض، ووجه أبا بكر (لأنه كان مايزال مرافقاً له) أن يراقب عن قرب، خشية أن يمنع الرومان

من الـوصول إلى أقـرب التلال، وذلـك بوسـاطة الترك، فـوقتها يكـون قد أحيط به تمامـاً، ولكن أبا بكر وقـد أخذ يتصرف بطريقة معـاكسة لما أراده قال: «قف، حقاً قف، ياسيدي، ألا ترى كـم من المشاكل محيق بنا؟ اهتم بسلامتـك» وبعدمـا قال هـذا وأكثر، وكـان غير قادر على اقنـاعه، تصرف وفـق أوامره، ولم يبـال الامبراطـور ولم يصغ لما قـالـه (فقـد كان مـن غير الممكن بـالنسبة لـه الفرار إلاّ مـع عار مستقبلي) بـل شرع ثانيـة بحملات على العدو،وبعدما قتل واحداً منهـم، أوقع الاضطراب في صفوف البقية، وبذلـك اغتنم الفرصـة فمضى ووقـف على تلة صغيرة، حيث التحـق به بقية الـرومان، وكان أولهم جون، الـذي بسبب كونـه [مانويل] ابـن أخيه أدخـل فيما بعد في صفـوف الــ Protosebastoi (٣٣)، وهكذا نجـا الامبراطوربهذه الطـريقة، مـن هناك، لأن فـرسه كـان مغطى تماماً بالعرق، ومنهكاً حقيقة.

وبينما كـان الامبراطـور مشتبكـاً مـع العـدو، كـان الـدمستـق جـون [أكسوكـوس] قد ترك بـالخلـف، وخشي أن يقع بين أيدي الأعـداء، ذلك أن العدو استمـر بالظهـور هنا وهنـاك على شكل جماعـات، وكان هـو بلا عون، وألـف فيما بعد تسويغات ضعيفـة لصالحه، قائلاً إن المكـان الذي وقف بـه كان منـاسباً جـداً، وكان مـن المتوجـب عليهم التجمـع هناك، لاتخاذ نقطـة حشد لـلامبراطور، وبهذه الطـريقة كـان قادراً على أن يُبقـي على مقربة منـه عدداً كبيراً من الذيـن كانوا —كما ذكرنـا— خارجين من المعسكر إلى الامبراطور، وبعدما أنقذ بـوساطتهم، وصل إلى الامبراطور، ثم انتقد جون [أكسـوكوس] نفسه وعدد كبير آخـر من بقية الرومـان شجاعة مـانويـل، وأصروا على أن مثـل هذه الأشيـاء ليسـت بعيـدة عن التهـور، وعندما تفحصت المسألة، أصبت بالدهشة، كيف أنه في ذلك اليوم، كان في وسط مثـل ذلك العـدد من المهـالك، ولم يصـب بجراحـة أو بضربة، ولاأجرؤ على القول فيما إذا كـان بسبب أعماله الجريئة المتكـررة ضد هؤلاء

البرابرة، حيث زودهم بمعرفة أصالته ونبله، وأصبح من المتعذر بالنسبة لهم الحاق الضرر به، أو أن مرد ذلك كان إلى عناية حكيمة به حسبما بات مفهوماً، وأنا شخصياً لاأرى ماقام به بين الأشياء التي تستحق الادانة، كما لايمكنني تصديق شجاعة الاسكندر، عندما أتفحص بشكل منهجي الحقائق المتعلقة بذلك الرجل، مالم يمنح المرء شيئاً ما إلى بداية الشباب، لأن الشباب لايقاوم، وإذا ماارتبط بالقوة والقدرة يصبح غير مرئي، لكن لندع كل انسان يفكر ويقول مايجب قوله حول هذه المسألة.

وعندما تعرض الامبراطور —كما سلف بنا القول— إلى ملامة أتباعه قال: «نحن لانحتاج في الوقت الحالي مثل هذه الكلمات، بل ينبغي عقد اجتماع بأحسن صيغة ممكنة خشية فقدان المزيد من الرومان في هذا اليوم، لأن أعداداً كبيرة مازالت تأتي ممن تركوا خلفنا»، وبدا من المناسب اقامة كمين في أقرب شعب جبلي، لمساعدة الذين مازالوا يتقاطرون، من حاشيته، وأيضاً ترك نيكولاس أنجيلوس —الذي تقدم ذكره— في الخلف في الكمين مع الوحدتين العسكريتين، اللتين وضعهما الامبراطور تحت قيادته، عندما قاتل الترك، ولم يكن الامبراطور قد سار بعيداً عندما وصل إلى شعب جبلي، وشاهد الأتراك يقتربون، وقد تصرف وفق مايلي: فقد وقف مع عدد قليل من رجاله على طرف الوادي، وأمر الآخرين الذين كانوا صاعدين في أن يتوجهوا مباشرة نحو العدو، وما ان اصطدموا بالبرابرة، حتى سمع ذلك الذين كانوا في الكمين، فخرجوا مسرعين، وطعن نيكولاس السالف الذكر برمحه واحداً من الأتراك، ومع ذلك لم يستطع زحزحته من مقعده، ذلك أن الطعن بقوة لم يكن ممكناً بسبب انحدار الأرض، وبذل مانويل أقصى ماأمكنه لدفع الترك إلى الوراء بعيداً، فأمر أتباعه بالذهاب إلى الشعب الجبلي فيما بدا بسرعة قصوى، لكن توجب عليهم عدم صعوده، وعندما لاحظ الأتراك هذا، انسحبوا بهدوء، وفي هذه اللحظة التقى النبالة الذين كانوا مع كوترزس

Kotertzes بالامبراطور، وكان هؤلاء —كما سلف القول— قد أرسلهم الامبراطور نفسه لتقديم العون للرومان الذين تركوا بالخلف، وهكذا قاتل الامبراطور الأعداء ثانية، وفجأة عطف هؤلاء رؤوس خيولهم وشرعوا بالفرار، وعندما رأى الامبراطور هذا، قال لأتباعه: «تشجعوا، هناك قوة قادمة إلينا من المعسكر»، وعندما أخفق الأتراك في الاقتراب، علّل بعضهم السبب بقوله: «لقد أدار الأتراك ظهورهم وغادروا فجأة، مع أنه لم يكن هناك خوف يدفعهم (ذلك أننا لم نكن معادلين لهم بالقوة) بسبب أنهم كانوا قادرين على رؤية شيء كان مايزال خفياً عنا، ذلك أنهم كانوا ينظرون نحو الأسفل من مكان مرتفع» وتبرهن أن هذا كان صحيحاً تماماً، فقد كان مارأوه هو الرومان من المعسكر، فهؤلاء قد عرفوا أن الامبراطور كان بالفعل واقع في مكان ضيق تماماً، فهبوا مسرعين لتقديم العون له.

وقد روي أنه حدث آنذاك ان قام السيباتوكراتور اسحق عم الامبراطور من جهة أبيه، الذي كان آنذاك في المعسكر، بالاقتراب من الخيمة الامبراطورية، وذلك عندما علم بأن الامبراطور كان في وضع يائس، ودخل إلى البيعة المجهزة بالفراش اللازم، وانتظر الذي سيحدث، عازماً على اغتصاب العرش، الذي كان منذ زمن بعيد —كما سلف القول— الشوق إليه قد استولى عليه، وتنامى الأمر لديه، ولم يقف عند حد النمو، بل نظر إليه بمثابة ميراث من الآباء إلى الأبناء، وستتحدث الرواية المقبلة، —على كل حال— عن هذا الأمر فيما بعد.

٨- عندما —كما قلت— (انني عائد إلى حيث بدأتُ الاستطراد) التحقت القوات القادمة من المعسكر بالامبراطور، تشجع الامبراطور بعددهم، فقام مجدداً بمهاجمة العدو، وأصبح البطل لأفعال شجاعة، ثم عاد إلى المعسكر بنظام جيد، ونهض عند الفجر، وركب الطريق، وهاجم الأتراك (الذين كانوا معسكرين بالقرب كثيراً) القوة الرومانية، التي

كـانت ثـانيـة في أرض وعرة، لقـد هاجموهـا مـن الجانبين وآلموها بشـدة، وسقط كثير من وحـدات الرجالة للسبـب التالي: كان في الجيش الـروماني مقاتـل رائع، اسمه كريتـوبلس Kritoples ، وكان هذا الـــرجل يقود قوات الـرجالة، وعندمـا حرف جانباً تشكيلتـه، صار في قبضة الترك الذين كـانوا يتبعونه عن قـرب، ولدى تغلبهم عليه بأعـدادهم الضخمة، تطلع نحو فـرار علني، وبهذه الطريقة، وبعـدما فقد كثيراً ممن كـانوا معه، نجا بصعوبـة، وعندما علم الامبراطـور بهذا، عهد بالوحـدة التي معه إلى أخيـه وإلى عدد كبير آخـر مـن كبار الأعيـان، وأسرع مـع عدد صغير مـن الـرجـال لانقـاذ الجزء الـذي كـان يعـاني مـن تلـك القـوة، ووصـل إلى وسطهـم، فأمـرهم بـالوقـوف بشجـاعة، وقـاتل بنفسـه الأتراك، ولاحظـه الأتراك وعرفوه، فلم يعودوا يقاتلون الرومان يداً بيد.

وأعمل الامبراطـور فكره، حـول كيف يمكن للقـوة الرومـانية أن تسترد شجـاعتها، فبسبـب مـاحدث لقـوات الـرجالـة —كما ذكـرنا— بـدأت شجـاعتهم تتـلاشـى، لأنه مـامـن شيء يؤثـر على النفـس مثل أن يـرى الانسان عن قـرب نزيف دم زميله، وسحـب الامبراطور من جيبه مـدرجاً كان مدونـاً عليه أسماء كل واحدة مـن الفرق،وأعطى توجيهـاته بما ينبغي على كـل واحدة، أن تفعلـه في مثـل هذه الظـروف الـدقيقـة من الأزمـة، ورفض عدد كبير مـن الوحدات طوال النهـار مواجهة العدو، وتخلـوا عن صفـوفهـم، وساروا نحـو قـافلـة أثقـال الجيـش، ولم يقيموا وزنـاً لأوامـر الامبراطور إلى حـد أنه على الرغـم من أن كثيراً منهم قـد عوقبوا جسـدياً ذلك اليـوم من قبله، فـإن البقية لم يبالـوا تقريباً بكـل ماكان يُفعـل، فقد جعلهم الجبن المنقطع النظير ناسين تماماً لشجاعتهم.

وعندما امتـزجت على هذه الصورة قوات السـاقة بالثقل، طـوقت بقية قـوات العدو بـأكملها الامبراطـور، وضغطت عليـه بشدة بـالغة، غير أنـه تصدى للعـدو بخبرته القياديـة، وهكذا استطاع أن يبقـى دون أن يصاب

بأذى، ثم بدا من المناسب لبعضهم العسكرة هناك، وعدم متابعة السير، غير أن هذا لم يرض الامبراطور، خشية انه إذا ما استمر الرومان في حالة الفوضى وعدم الانتظام التي كانوا فيها، فإنهم سيهزمون فوراً، أو في الصباح التالي عندما يكونون قائمين بالتجهز للمغادرة(٣٤)، وقال عليهم بالحري القتال، فإذا ماتمكنوا بطريقةما من ردّ العدو، فبإمكانهم زرع الحسك دونها اعاقة، والعسكرة حيثما أرادوا وليس في فسحة محدودة، وبعدما قال هذا، وعندما رأى أن غالبيتهم لم تقبل النصيحة عهد بالمسؤولية عن المعسكر إلى زيكانديلس Tzikandyles (٣٥) وسينوباتيس Senopates ، وكذلك إلى كريتوبلس Kritoples وعدد كبير آخر من القادة.

وأخذ الامبراطور الراية الامبراطورية، وقام بمهاجمة العدو بكل سرعة ومعه أتباعه، وقد اعترى العدو الدهشة بسبب الهجوم المفاجىء، وأرغمهم الامبراطور على التفكير بالفرار، ثم تبع ذلك مطاردة فخمة، وقتل الرومان الذين تولوا أعمال المطاردة عدداً كبيراً من الأعداء، وأخذوا قليلاً منهم وهم أحياء، وكان بينهم بركوساس Pharkousas ، وكان شخصية بارزة بين الأتراك، فهو الذي كان يقدم بيده الكأس إلى السلطان أثناء تناول الطعام، ويدعو الرومان هذه الشخصية «حامل الكأس»، وكان في الجيش الروماني واحداً له قرابة بالرومان من ناحية المولد، لكن بما أنه نشأ وتربى بين الأتراك، فقد تهيأ له حظ تسلم امارة بينهم، وكان اسمه غبراس Gabras (٣٧)،وعندما قتله الرومان في ذلك اليوم، حملوا رأسه وطافوا به حول المعسكر، وتوقف الامبراطور عن المطاردة (لمضي هزيع طويل من الليل) وعاد مع علامات الظفر، ليجد الرومان مايزالون في فوضى عظيمة وعدم انتظام، (حتى أن حيوانات النقل لم تكن قد تحررت بعد من الأثقال التي على ظهورها) فقام بسرعة برسم دوائر المعسكر كله، وعين مساحة مناسبة لكل واحدة من القطع

العسكرية، لكن عدد الجنود الذين أمضوا الليل على ظهور خيولهم لم يكن قليلاً، فبسبب الجبن المتناهي، كانوا غير قادرين على الترجل عن ظهور مطاياهم، وعلى هذه الصورة عسكروا في تلك الليلة.

وما ان أشرقت الشمس، ورؤيت على وجه الأرض حتى مضى إلى وسط الجيش، ووقف على ظهر فرسه، كما هي العادة بالنسبة للذين يتولون قيادة الوحدات العسكرية، وتحدث كما يلي: «أيها السادة الشرفاء، انني لم آت لأحثكم على أن تكونوا شجعاناً، بسبب ادراكي لجبنكم أو أي جانب ضعف آخر، إن الرومان لايتصرفون بمثل هذه الدناءة ولايقودون أنفسهم بمثل هذا الانحطاط، ولايلطخون هكذا بالعار فخار أجدادهم، ولكن بما انني أنفذ هذه العادة العسكرية بمخاطبتكم، لاأريد أيضاً اقناعكم باتخاذ سبل أكثر أماناً للمستقبل، لأن هناك لحظات تقع فيها مخاطر غير مرئية أو متوقعة وتلقي بالحزم والشجاعة في فوضى، وعليكم أيها الأتباع من الجند أن تعلموا اننا نواجه اليوم صراعاً أعظم من الصراعات الماضية، وكأني بهذا الصراع هو الصراع الأخير، ويتوجب علينا أن نكون على خير استعداد، على أساس جهودنا المتقدمة، وإلاّ سنلطخ بالعار أفعالنا الرائعة السالفة، ونكون السبب في جلب تعاسة عظيمة إلى أنفسنا، وكما أن القطعة الخاتمة من حسن الحظ تقوّم بشكل طبيعي ماتقدم من سوء حظ، كذلك تدمّر المأساة اللاحقة النجاحات المتقدمة، وخشية أن يقع هذا لأنفسنا، على كل واحد منا، ياخيرة الرجال، أن يحافظ على النظام بقدر ما هو ممكن، ذلك اننا جميعاً ندرك اننا إذا ماحافظنا على صفوفنا متراصة تماماً، وإذا ماأسهم كل منا بنصيبه إلى البقية، سيبقى لنا امكانية أن نربح وأن نبقي لأنفسنا شهرة سوف تعيش للناس وللزمن، وعلى كل حال، إذا ماحدث العكس، في أن افترقنا عن بعضنا بعضاً، اعلموا إننا سنكون على الفور فريسة سهلة للأعداء، وكما الحال عندما تكون هناك مدينة محاصرة فتتدمّر أسوارها

وتنهـار، وبذلـك يسهل دخـول الأعداء إليهـا، يندرج كـذلك الأمـر على الجيـوش، وعلى هـذا الأسـاس، ولهذا السبب اخترع القـدمـاء: الفئـات، والـوحدات، والمقـدمـة والساقـة، والجنـاحين الأيمن والأيسر، والصفـوف المتناظرة، وأشكـال الزحف، لأن الجيش أيضـاً مدينة، إنه يتطلـب أبوابا، وأسواراً، وخنادق، وجميـع أنواع المستلزمات مثـل المدن، وعليه ينبغي أن نعدّ أنفسنـا لأننا مـازلنا في وسـط بلاد العـدو، وتجولنا بعيـداً عن حـدود رومانيا»(٣٨).

وبعـدما قـال هذا، وعبـأ الجيـش ونظمه، انطلـق مباشرة نحـو البحيرة التـي كـان النـاس يـدعـونها مـن قبـل «سكلـروز Skleros »، ويسمونها الآن «بـوزغور(٣٩) Pousgouse » ، وعندمـــا وصل السهـول مـن ذلـك المكـان الضيـق، وأصبـح في منبسـط مفتـوح، أمـر الامبراطور واحداً من الجنود في أن يصرخ بصوت مـرتفع جداً، ويستدعي واحداً مـن الأتراك، ونفذ الجنـدي ماأمـر به، وقال الامبراطـور إلى التركي الذي اقترب: أخبر سلطانك بما يلي:

«يقول لـك الامبراطور العظيم عبري هذا: لقـد جئنا إلى قونيـة نفسها، لقد دمـرنا أرضك، لأننا بشكـل خاص نرغـب في معاقبة جرائمـك ضد امبراطـوريتنـا [أي: جلالتنـا]، إنـك على كـل حـال، قد فـررت بشكـل مستمر، مثل عبد آبـق، تتنقل من مكان إلى آخر، ولذلـك لم تبق لتواجهنا وجهاً لوجه، وبناء عليه، نحـن مغادرون لأرضك، لكن عليك أن تستعد، واعلـم جيداً انـه عندمـا يأتي الـربيـع سنعود إليـك ثانيـة باستعـدادات أعظم»، وبعدما أعطـى هذه الرسالة إلى التركي، وقـدم له درع واحد من النبـلاء، ليكـون دليـلاً على أنـه قـد أرســل مـن قبـل الامبراطـور، أمـره بالانصراف.

وعندمـا سمع السلطان بهذا، بعـث بعد وقـت قصير برسل مـن عنده

من أجل السؤال عن السلام، وقدر الامبراطور المسألة حق قدرها ولم يغفل عن أهميتها، وأجل الاجابة على الوفد بشكل متكرر من يوم إلى اليوم الذي يليه بحجة الانتقال من مكان إلى آخر، والسبب وراء ذلك كما أعتقد هو أنه أراد أن يعلم شيئاً يقيناً ومحدداً حول الذين متوقع —كما قلنا— قدومهم من الغرب.

٩- وعندما وصل إلى موقع توجد فيه ينابيع نهر منادر [بيوكمنادرز]، ظاناً أنه بات بعيداً عن الأراضي العدوة، وملاحظاً أن المنطقة كانت غزيرة المياه، ومريحة وسارة للعين البشرية، رغب أن ينال نقاهة من متاعب المعارك بالراحة والصيد، غير أنه لاحظ وجود بعض التحركات عن بعد في الأحراج، وبسبب بعد المسافة كان غير قادر على تحديد ماراه، لذلك بعث ببعض من رجال حاشيته ليستطلع، فسمع بوجود عدد كبير من الخيم تجمعت هناك، والحركة في ذلك الحرش كانت حركة خيول هذه الخيم، وكانت ترعى الأعشاب بدون وجود لجم في أفواهها، ولقد عرف على الفور من كان أولئك الأتراك، وسماهم تبعاً لقبيلتهم: متنبهاً إلى أن رجلاً اسمه رامان Raman كان مقدمهم، وانهم قد جاءوا تماشياً مع عادتهم في نهب بعض الأحواز الرومانية، وأنهم الآن يحملون غنائم كبيرة(٤٠).

وبعدما اختار بعض الجنود الذين كانوا معه، أرسلهم بسرعة للقيام بأعمال المطاردة، وبادر مسرعاً إلى مكان يمكنه من الرؤية الجيدة، ووقف هناك يراقب ومعه عدد قليل من الرجال، وكان الأتراك في الوقت نفسه قد حملوا أثقالهم، وحزموا أمتعتهم وانطلقوا من هناك، ولأنهم أدركوا بسرعة أنهم سيقعون بأيدي الرومان، وذلك بعدما رأوهم مندفعين على شكل جماعات، انعطفوا ووقفوا لمواجهتهم، وعندما دفعهم الرومان، أداروا ظهورهم ثانية، وفي الحقيقة عندما فعلوا هذا مراراً جعلوا كثيراً من الرومان يترنحون، ولهذا تخلوا عن المطاردة، ونشدوا راحة أنفسهم بالعودة.

ولدى ملاحظة الامبراطور ذلك (لأنه —كما قلنا— وقف على مكان مرتفع يراقب الأمور) توجه نحوهم بأقصى سرعة ممكنة، بدون درعه، وعندما رأى الأتراك عدداً من الرومان قد لحقهم الإعياء، نتيجة المطاردة —حسبما ذكرنا— وانهم تفرقوا وابتعد أحدهم عن الآخر، ولدى ادراكهم تماماً كم كان عدد الآخرين قليلاً، هاجموا البيزنطيين من على الطرفين، وقاربوا أن يلحقوا بهم بالحال ايذاءً عظيماً، لولا ان الامبراطور ظهر لهم بشكل غير متوقع وأنقذهم من الخطر، وأمضى وقتاً طويلاً في متابعة مطاردة الهاربين الأتراك، لكن لدى ادراكه أن حصانه قد انهك، وقف هناك منتظراً أن يزود بحصان يكون من نوع الخيول السريعة المتميزة، والتي لسرعتها، دعيت بالخيول «البرية»، ووجه الرومان الذين كانوا يتقاطرون على شكل أفراد أو جماعات، وتمسكوا معه من الخلف بالمطاردة أبعد، وألا يتخلوا عن حماسهم، وقرر آخرون من الرومان انهم بعدما قاموا بمطاردة بعيدة المدى، وبما انهم غير قادرين على تحقيق أي شيء، ثم لأنهم لاحظوا ان المكان الذي جاؤوا مندفعين نحوه معظمه خلواً ومهجوراً، وفي الحقيقة يتعذر الوصول إليه، قرروا ادارة ظهورهم، وسُعد مانويل بابن عمه أندرونيكوس(٤١)، الذي تحدثنا عنه مطولاً فيما مضى [كذا]، والذي كان مندفعاً نحو العدو،وقد تخلى بعد الضغط عن حصان له [لمانويل]، وبعدما امتطاه سمح له بالانتظار هناك، ووجهه أن يأخذ الحصان البري المذكور، الذي سيجلب فوراً، ومن ثم يلتحق به في القتال، وبعدها اندفع مانويل ضد العدو.

وكان الجيش التركي مقسوماً إلى قسمين: مضى قسم منهما نحو الأمام لجلب قطيع الخيل كله، الذي تبعهم على شكل جماعات بدون أحلاس، وجاء البقية خلفهم لصدّ الرومان الواصلين، وحيث أن ما من أحد من الرومان ظهر في أي مكان، فقد تشجعوا للمستقبل، واتحدوا معاً، وخططوا لجمع القطيع المذكور في مكان واحد، وكان هذا القطيع مندفعاً

هنا وهناك بدون سيطرة عليه، وعندما لاحظوا أن الامبراطور لوحده من دون الرومان، يقاتلهم بدون درعه، تقاطروا نحوه بشكل حاشد، مفوقين قسيهم، ومشجعين بعضهم بعضاً، واتخذ الامبراطور موقفاً فوق الشجاعة، فبعدما أدرك أن تطويقه من قبل الأعداء كان من غير الممكن هناك (المكان الذي امتد على الجانبين معاً، منعهم من ذلك) جعل نفسه هدفاً لهجماتهم، فرمى بعضهم أرضاً وأرغم الباقين على طلب الفرار، ثم إن واحداً من البرابرة كان غير قادر على مقاومة طعنة الامبراطور، فانبطح على الأرض، وما ان لاحظ قيام مانويل بالهجوم والتقدم نحو الأمام، حتى رماه بسهم أصاب به نهاية رجله من الخلف، أي أصابه في الجزء الوحشي البارز من كعبه، ثم سارع التركي ليرميه ثانية، لكن قبل أن يفعل ذلك أخذه الامبراطور أسيراً بامساكه من شعره، وفيما هو عائد وهو معه إلى الجيش، واجه أندرونيكوس، ذلك أنه عندما جلب له الحصان الامبراطوري، امتطاه وهاجم الأتراك، وحاول مانويل بالحاح أن يثنه عن الذهاب بعيداً، ذلك انه كان مجرداً تماماً من السلاح، وبما أنه كان غير قادر على اقناعه (لأن أندرونيكوس تابع المطاردة بشجاعة وبدون حدود، وشخر ونخر شوقاً للحرب، وكان يحمل رمحاً وترساً بشكل جيد، فهو لم يستخدم سلاحه، بل ما أخذه من واحد من النبلاء) تركه يذهب، وتابع مانويل سيره على الطريق والتحق ببقية الجيش الروماني، ولم يجب على أسئلة الذين استوضحوا منه كيف تدبر الأمور في القتال عندما مضى لوحده تماماً ضدّ العدو، كما أنه لم يذكر شيئاً عن الأعداء الذين —كما ذكرنا— تولى قتلهم، متجنباً بذلك شكوك دناءة التبجح، لأن الفعل الذي لايقع على مشهد من الناس ويعرض لسماع الثناء عليه، يقود بسهولة إلى الانكار.

وأمر على الفور بمعالجة جرحه والعناية به خشية أن يلتهب وتتعذر معالجته، ثم حدث بعد ذلك حدث يستحق الذكر، فعندما لم يعرفوا

كيف يعالجونه، سحب واحد من الجنود مديته وعزم على ازالة قطعة من لحمه، بغية وضعها وهي ساخنة على الجرح فلربما تمنع الالتهاب، وفي الوقت الذي تقبل فيه الامبراطور رغبة الرجل الطيبة، منع ذلك، وأمر بقطع قطعة من لحم واحد من الخيول التي هلكت على الطريق نتيجة للانهاك، ووضعها مباشرة على الجرح.

وبعدما ثابر على الزحف خلال منتصف الليل وصل إلى المعسكر المنصوب قرب ينابيع نهر منادر، وكانت هناك كميات هائلة من المياه تتدفق من الصخور تحت الجبال، وكأنها تنبعث من عشرات الألوف من الأفواه، وتغطي المنطقة المجاورة ثم تتجمع أولاً في بحيرة، بعدها تندفع حافرة قناة، ومشكلة نهراً من هناك(٤٢)، وبالنسبة لأندرونيكوس الذي —كما ذكرنا— تابع سيره نحو الأمام، فإنه لم يحقق شيئاً، باستثناء أنه ساق إلى المعسكر كثيراً من الخيول كانت ممتطاة من قبل الأعداء الذين قتلهم الامبراطور، وبعد الاكتفاء بهذا، ركب الامبراطور الطريق إلى بيزنطة، وعندما وصل إلى بيثينيا Bythynia أسكن الرومان الذين أنقذوا من فيلوميلون، وذلك حسبما ذكرنا من قبل، وأمن ممتلكات لهم بالتبادل مع أحد الأديرة المقدسة، وأشاد هناك حصناً سماه بيليا Pylia (٤٣).

١٠- في حوالي ذلك الوقت، جرى خلع كوزماس Kosmas —الذي كان آنذاك مسؤولاً عن الشؤون اللاهوتية، وكان رجلاً أديباً [Kosmios] في الحياة والحديث— من العرش البطريركي للأسباب التالية(٤٤):

كان هناك رجلاً مارس حياة الرهبنة، واسمه نيفون Nephon ، لم يكن عرضة للاغراءات العامة للثقافة، والعلوم الدنيوية، بل كرّس نفسه منذ الطفولة للكتابات المقدسة، وبينما كان ميخائيل، وهو رجل مقدس،

ومتميـز بصلاحـه، يحتـل العرش الـلاهوتي، بشر نيفـون هـذا بأفكـار غير مقبولـة، نشرها بين كثيرين مـن حولـه، تعلقت بالعقـائد المسيحية، ولهذا السبب تمت ادانتـه بقرار مجمـع ديني مقـدس، فقصت لحيتـه، وسيق إلى السجن ووضعت الأغلال حول قدميه، لكن بعدها توفي ميخائيل، وزين كوزمـاس العرش —كما ذكـرنا من قبـل— تلقى نيفـون على الفور حـرية أعظم للكـلام، ونشط كثيراً في الاجتماعات والأسـواق، وهو لم يفعـل شيئاً تعدى تـوزيع أفكـاره، ورفضه لرب العبرانيين(٤٥)، ورغـب بالافـادة من مثل هـذه الأشياء، وأعجب بـه كوزماس اعجـاباً عظيماً، وجعل مـن هذا الشخص خـدينه، وأعلـن أن ماصـدر بحقه كـان ظلماً، وسارع إلى إلغـاء العقوبات التي صـدرت من قبل بحق الرجل، وقـد احترم فضائله، ومنح شيئـاً ما إلى كلماتـه، لأنه كـان في وقت مبكـر قـد تنبأ بـاعتلائه العـرش البطريركي.

وكانـت الجماهير غير راضية عن هـذا، ولهذا تقدم بعـض من المتعلقين بكوزماس والمهتمين به، منـه، عندما كان مرتاحـاً مسترخياً، وقالوا: «لماذا، أيها الراعـي المقدس، عهدت بنفسـك إلى ذئب؟ ألا تعلم أن رأي الـرعية انك مخدوع في هذا الجانـب؟ انفصل عن صداقة الفاسـد، وأن تتعايش مع رجل مزدول أمر يكفي للادانة».

هكذا تكلمـوا، أما الذيـن كانوا معـادين للبطـريرك فقد اشتكـوا علناً ضده، واتهموه أمـام أعين الرب والامبراطور، غير انه تابع غير عـابىء بأي شيء، وظل متعلقـاً بقوة بنيفـون، وكان غير راغـب بالانفصـال عنه، مهما حـدث، وبسبب بسـاطته المتنـاهية مـاكـاد ينجو مـن العقوبـة القاسيـة، وبعـدما أمـر الامبراطور بـايـداع هذا الشخـص بـالسجن، وعنـدما جـاء الرجـال لأخذ [نيفون]، أصيـب كوزمـاس أولاً بالذهـول إلى أبعد الحدود، ثـم استرد وعيه، وجمع نفسـه، وذهـب مـاشياً إلى صحـن الكنيسة، حيـث حاول انتزاع الشخص من الرجال الذيـن كانوا آخذيه، وعندما تشبثوا ولم

يتراجعوا، رغب في أن يؤخذ معه إلى السجن، واستولى صراع على الكنيسة بسبب هذه المسألة، وتورط كوزماس بالاتهامات، ولم يتخلص من هذه المشاكل حتى وصل الامبراطور إلى بيزنطة (لأنه كان منشغلاً بالأعمال العسكرية)، وخلع كوزماس من العرش وفق الطريقة التي أنا مقبل على حكايتها:

فبعدما استقبل الامبراطور كل واحد من الأساقفة على انفراد، سأله كيف بدت تقوى نيفون له، وبعدما أوضح كل واحد منهم الأحوال بكل صدق، أحال آخر الأسئلة إلى كوزماس، وكما هي العادة أعلن باصرار رأيه بنيفون فيه مديح وتبجيل، وسماه علناً تقياً، ولايوجد من يباريه بفضائله، وعرضت القضية أمام المحكمة، واستشار الامبراطور الأساقفة، لكن ليس مرة أخرى على انفراد، بل سألهم مجتمعين عن رأيهم بنيفون، فأجمعوا على ادانته بعدم التقوى، وتمسكوا بهذا الموقف، فوجّه الامبراطور السؤال إلى كوزماس قائلاً: «لكن، أنت أيها السيد، ماالذي تراه بالرجل؟» وعندما أعلن ببساطته عن طواعية تمسكه بالآراء نفسها، صرخت الجماهير ضده، وعدّوه غير أهل للبقاء على العرش، وهكذا أزيح من وسطهم، لهذا السبب، والذي أراه انه باستثناء سذاجته، كان رجلاً غنياً بجميع الفضائل.

١١- وبعد وقت قصير عاد الامبراطور إلى معالجة مشاكل الترك [١١٤٧]، فبعد وصوله إلى نهر ريندكوس Rhyndakos ، انشغل بالتحضير لحصار قونية وللعيث فساداً بكل ماحولها، ولم يكد —على كل حال— الجيش ينتقل من هناك، حتى جاء رسل من عند السلطان يطلبون السلام، وكان على رأس السفارة رجل عالي المكانة قوياً جداً بين الأتراك اسمه سليمان(٤٦)، وكان رجلاً مشهوداً في كثير من الحروب، وتبرهنت لديه قدرة الامبراطور، عندما —كما رويت— واجه الجيش الروماني عند الموقع المعروف بتلة كالوغرايا Kalograia ، وهزم

بشكل ساحق وكانت أهداف السفارة كما يلي:

أن يعيدوا إلى الامبراطور براكانا Prakana ، وكل شيء آخر أخذوه من قبل من الرومان، وهكذا اتفقوا على أن يكون هناك سلام في المستقبل بين الترك والرومان، وقبل الامبراطور بهذه الشروط، وأوقف الحرب، وعاد إلى بيزنطة.

١٢- وكانت في هذه الآونة بداية تحرك جديد في الغرب، للنورمان والفرنسيين، وأمم الغاليين، وكل من سكن حول روما، والبريطانيين والبريتون، وببساطة تحركت جميع صفوف الغربيين، وانطلقت بحجة ظاهرة هي أنهم سيجوزون من أوروبا إلى آسيا بقصد قتال الترك أثناء الزحف على الطريق، ولاسترداد الكنيسة في فلسطين، ولحماية الأماكن المقدسة، غير أنهم، كانوا في حقيقة الأمر يريدون الاستيلاء على بلاد الرومان، بوساطة الاغتصاب، وسحق كل شيء أمامهم(٤٧)، وكان جيشهم لايعد ولايحصى، وعندما علم الامبراطور بخبر دنوهم من الحدود الهنغارية بعث إليهم برسولين هما: ديمتروس ماكريمبولايتس De-metrioes Makrembolites ، والاسكندر، وكان ايطالي المولد، وكان كونتاً لمدينة غرافينا Gravina الايطالية، لكن قد تمّ طرده منذ زمن طويل مع عدد كبير آخر من المملكة، وذلك بوساطة طاغية صقلية [روجر الثاني]، وعقب ذلك، أصبح عن طواعية من رعايا الامبراطور(٤٨)، ووجهها الامبراطور للبحث في نوايا الغربيين، وإذا كانوا قد قدموا وهم لاينوون الحاق الأذى بالرومان، فليؤكدوا هذه المسائل بالأيمان.

وعندما مثل الرسولان أمام قادة البرابرة قالا مايلي: «إن توجيه حرب خفية ضدّ الذين لم يقترفوا ذنباً، ليس من التقوى، وليس أيضاً أمراً لائقاً برجال ذوي منزلة رفيعة من حيث الأصل وشدة البأس، لأنهم إذا

ماكانوا المنتصرين، فانتصاراتهم هباء، ربحوها بدون شجاعة، وبما انها هباء، فإنهم لن يعرضوا أنفسهم للمخاطر، من أجل التميز، ثم إن ذلك لن يكون محموداً، وإنه سيكون من المستحيل بالنسبة لكم عبور أرض الرومان دون أن تقدموا للامبراطور ضمانات بعدم الايذاء، ومالم تكونوا أديتم أيماناً زائفة، لماذا تثيرون الحرب سراً؟ وسيكون من الصعب بالنسبة لكم قتال الرومان مباشرة، وسيكون الأمر أكثر صعوبة إذا خرقتم مواثيقكم وآثرتم الحرب ضدهم سراً، لأنكم في تلك الحالة إنما تحاربون الرب، وتقاتلون قوة الرومان، وعلى كل حال، إذا كانت صداقتكم أصيلة، وخالية من الرياء، وليس في باطنها خيانة، وتؤكدون هذا الأمر بالأيمان، وقتها سيكون بإمكانكم جواز أرض الامبراطور العظيم، وكأنكم تعبرون أرضاً صديقة، وبالتعقل والتبصر سوف تتمتعون بكرم الضيافة وبجميع أنواع اللطف». هكذا قال الرسولان.

واجتمع الآخرون [الصليبيون] معاً في خيمة كونراد ملك ألمانيا، لأنه استحوذ على مكان الصدارة بين أمم الغرب، وأعلنوا أنهم لم يقدموا لالحاق الأذى بالرومان، وإذا كان الأمر يستدعي ضمانة القسم، فهم على استعداد لأداء ذلك، مذكرين أن حملتهم هي إلى فلسطين، وضد الأتراك الذين نهبوا آسيا، وبناء عليه بات من المناسب للرومان أن يترجموا أقوالهم إلى أفعال، أي أولئك الذين كانوا على مقربة من الملوك، وكل من كان بارزاً بينهم، وأعني الأدواق والكونتات، الذين مناصبهم متميزة، ومثلها تميزهم بتحدرهم من أعيان الامبراطورية، وبحكم أن الأعظم نبالة يتفوق على الآخرين، وبما أن الدوق يتقدم على الكونت، والملك أعلى من الدوق، والامبراطور أرفع من الملك، من الطبيعي أن يخضع الأدنى للأعلى والأسمى مكانة، يساند في الحرب، ويطيعه في مثل هذه المسائل، وبناء على ذلك فإن اللاتين اعتادوا على تسمية الذي يدعوه الرومان «باسليوس» بالامبراطور، وذلك اشارة منهم إلى منزلته الرفيعة، ثم

إن الملوك هم الذين يحتلون المرتبة الأدنى. وهكذا يكون الحال.

وعندما أنجز الرسولان المهمة التي توجها من أجلها إلى البرابرة ونجحا، عادا إلى بيزنطة، بينما تابع الملكان سيرهما على الطريق، وبالطبع لم يختلط الجيشان ببعضهما، وسار الألمان أولاً، وخلفهم سار الفرنسيون، وأنا لاأعرف لماذا فعلوا هذا، ولعل مرد ذلك إلى أن كل منهما كان يود أن يتفاخر بأنه خاض معركة هامة لوحده، أو أنهم اهتموا بموضوع المؤن، وانها ماكانت لتكفيهم مجتمعين معاً، وساروا بأعداد لاحصر لها ولاعد، تزيد على رمال الشاطىء، وعندما نصب اكزرسيس Xerxes جسراً من المراكب فوق الهلسبونت، لم يتفاخر بأعدادها الكبيرة، لأنهم عندما وصلوا إلى الدانوب، اتخذ هناك الامبراطور اجراءات محددة لجوازهم، وأمر الشطر الأكبر من الموظفين الذين تمركزوا على ضفتي النهر ليكتبوا حمولة كل سفينة، وبعدما وصلوا بالعدّ إلى تسعين عشرة آلاف [٩٠٠,٠٠٠] لم يستطيعوا أن يعدوا أكثر(٤٩).

١٣- هكذا كانت عظيمة هذه الحشود، وعندما وصلوا إلى القرب من مدينة نيسوس Naissos [نيش]، التي هي حاضرة داشيا(٥٠)، قام ميخائيل، وكنيته براناس، الذي كان الامبراطور قد عهد إليه بحكومة تلك المنطقة، بتزويدهم بالحاجيات الأساسية، ولدى وصولهم إلى سارديكا [صوفيا] Sardika ، تلقاهم اثنان من الأعيان، ورحبوا بهم بشكل لائق وزودوهم بالضروريات، وكان أحد الرجلين ميخائيل سيباستوس، من أسرة باليولوغي Palaiologoi ، وكان واسع التجربة، خبيراً في كثير من الشؤون، وكان قد طرد من قبل، من قبل الامبراطور جون، لسبب أجهله، وصار منفياً، غير أنه استدعي من قبل الامبراطور مانويل، وأصبح أثيراً لديه، وموقفاً على دولة الرومان خاصة، فهكذا كان هو.

أمـا الآخر فكـان شخصاً اختـاره كل من الامبراطورين ليشغل وظيفـة كـارتوليريـوس Chartoularios [رئيس ديـوان الانشاء]، ونـــال رعاية الامبراطور جـون ونظر إليه نظرة تقدير، فعنـدما توفي ألكسيوس أكبر أبنائه، اعتمد عليه الامبراطور بدعـوة مانويل لاستلام صوبجان الملك بعد مـوتـه وأن ينقل إليـه المنصب الامبراطـوري(٥١)، ولهذا السبب ذهب إلى سارديكا.

وكان البرابرة في منطقة وعرة صعبة (لأنـه من نهر الدانوب إلى سارديكا يرتفع عـدد كبير من الجبال عـالياً، وهي في الحقيقـة متعذرة العبـور) وقد تقدموا بهدوء، ولم يفعلوا شيئاً يتعارض مع رغبـات الرومان، ولكن عندما دخلوا إلى السهول التي أعقبت المصاعب في منطقـة داشيا، بدأوا يظهرون نواياهم الشريرة، فقـد استخدموا قوتهم الظالمة ضد الذين كـانوا يقدمون لهم البضائع للبيع في الأسـواق، وإذا ماقاوم أحد سلبهم، جعلـوه ضحية لسيـوفهم، وكان الملك كـونراد غير مبـال تماماً بما كـان يجري، وهو إمـا لم يهتم بـالمتهمين، أو كان إذا مـاأولى الاهتمام تـولى عزو كل شيء إلى حماقـة الحشود.

ولـــدى سماع الامبراطـــور بهذا، أرسل جيشـــاً تحت قيـادة بـــروســـوك [برسق] Prosouch وهو رجل قوي المراس في الحرب، وبعدما قابلهم قـرب أدرنة، تتبعهم لبعض الـوقت على مسافة قـريبة، سـاعياً إلى كبح جماح الحشود، والحيلولة دون انتشار فـوضاهم، وعندما رآهم أصبحوا أكثر وقـاحة، اشتبك معهم وقتها في منـاوشات عسكرية مكشـوفة، وذلك للسبب التالي:

حـوى أحد الأديـرة في أدرنة واحـداً من الشخصيـات الألمانية، وكـان يعاني من مرض في جسـده، وكان معه أمواله وتجهيزاتـه كلها، وقام بعض الرومان من وحدات الـرجالة بنهبه، ثم أشعلوا النار في مقـر اقامته، وبعد

أن دمروا على هـذه الصورة الـرجل، استولوا على بضـائعه جميعـاً، وما ان وصل الخبر إلى مسـامع فـردريك، ابن أخي كـونـراد، وهـو رجل لايمكن السيطـرة على انفعالاتـه، وكـان بالفعل يتسـم بالـوقـاحة، بسبب غضبـه المفرط، فلقـد عاد سريعـاً، وبات بذلك عليـه امضاء يـومين على الطريق للحـاق بكونـراد، لقد عـاد مسرعـاً إلى أدرنة، وأحـرق الديـر حيث هلك الألماني من قبل، وبذلك أوجـد بهذه المناسبة فرصـة الحرب للرومان ولهم أنفسهم، وعلى هذا الأسـاس جاء بـروسوك للسيطـرة على الموقف، وصد فردريك وطـرده وأوقع مذبحـة كبيرة بين البرابرة، وكـان فردريك هـذا هو الذي تـولى حكم الألمان بعد كـونراد، للسبب الـذي سأحكيه في الـرواية التالية(٥٣)، وتخلى الألمان منـذ ذلك الوقت عن تبجحهم السالف، وذلك بعدما تعرفوا إلى مقدرة الرومان بالفعل.

١٤- وبينما كـان هذا يحدث هنـاك، فإن أنـدرونيكوس، الـذي كانـوا يدعونـه أوبوس، والذي كان الامبراطور قد بعث بـه لهذا الغرض، ذكرهم بأيمانهم، وغـالباً مـا أوضح لهم الذي تعهـدوا به من قبل بعـدم الحاق أي أذى بـالـرومـان، ولامهم لغـدرهم، ونصحهم، انهم إذا مـا أرادوا تفـادي الوقـوع بالخطر، فما عليهم سـوى متابعة السير إلى العبّارات عنـد أبيدوس [جنق قلعـة] والجواز من هناك، وبعـدما كـرر قول هـذا ورده، وكان غير قادر على اقناعهم، عاد أندرونيكوس مخفقاً إلى بيزنطة.

واجتمع الألمان للتشاور، ولتقـدير الأمر المعـروض أمامهم، وعندمـا بدا لهم أن الصـواب بـالتمسك بالطـريق إلى بيـزنطـة، انطلقوا نحـو الأمـام، وساروا على طـريقهم، وكانوا ثانيـة ليسوا أقل وقاحة وتبجحـاً، حتى بعد هزيمتهم، فقـد ذبحوا الماشية دونما رحمة، وقتلـوا كثيراً من الرومـان الذين قاوموهـم، ومع ذلك فإن الحرب المكشوفة لم تتطور.

وعنـدمـا علـم الامبراطـور بهذا، قـرر بأن عليـه هـو نفسـه القيـام

بالاستعدادات، وهكذا شحنت القسطنطينية على الفور بالعساكر، التي قام بعضها بالعسكرة أمام الأسوار، واتخذ آخرون مواقفهم داخل الأبواب، وبعث بباسيل الذي يكنيه قومه زيكاندلس(٥٤) Tzikandyles الذي كان قد حقق مجداً في كثير من الحروب في المناطق الواقعة عند مشرق الشمس، وفي القتال هناك مع البرابرة، وكان هو ومعه بروسوك السالف الذكر من أصل تركي، ولكنه كان واحداً ممن حظي بالتربية الرومانية والتعليم، ووقف منتظراً مع قواته عند مكان اسمه لونغيو Longoi ، وأمرهم أن يبذلوا قصارى جهدهم في ردع الألمان إذا ماحاولوا مجدداً الشروع بأعمال عنف جائرة.

ولدى وصولهم إلى تلك البقعة، تعرفوا إلى أرقام الألمان، واستطلعوا بدقة كيف كانت تشكيلاتهم، وفيما إذا كانت في فوضى أو في انتظام، وكان مما لاحظوه أن بنيتهم الجسدية كانت مفرطة الضخامة، ومغطاة تماماً بالسوابغ، لكن خيالتهم لم تكن خفيفة الحركة وسريعة أبداً، ولاحظوا أيضاً أنهم يمارسون فوضى عظيمة أثناء الزحف، وافترضوا أن قوتهم لهذا سوف تكون من السهل التغلب عليها من قبل الرومان، الذين يقاتلون بشكل علمي، وبعثوا إلى الامبراطور، بتقدير حوى هذه الأشياء، وسألوه ماالذي ينبغي صنعه، وكان حتى الآن مايزال حذراً بشأن الغرض الظاهري للبرابرة، وأعني حملتهم المزعومة إلى فلسطين، ولهذا تمنع عن القيام باجراء ضدهم، وآثر الانتظار حتى يقدموا على القيام مجدداً بمزيد من محاولات العنف، وهكذا تمسك الامبراطور بهذا القرار.

واستمر البرابرة بالسير على طريقهم، وعندما زحفوا في السهول القائمة قرب كيوروباكيو(٥٥) Choirobacihoi (لأن المنطقة هناك واسعة الامتداد، وتوفر بشكل خاص كثيراً من الأعشاب لرعاية الخيول) عسكروا هناك، وقد حلت بهم كارثة هناك بالتأكيد تفوق الوصف،

يمكن أن يستخلص منهـا بشكل منطقي أن الـرب كان غـاضبـاً عليهـم، لأنهم أفسـدوا أيمانهم وزيفوهـا، ومارسـوا كثيراً من الأعمال الـلاانسانيـة نحـو أناس يـدينـون بـالدين نفسـه، ولم يقترفـوا بحقهم أي خطأ، فحينما هبت عـاصفة غير متـوقعة، فـاض النهـران اللذان يمـران بذلك المكـان، وكـان أولهما يعـرف بين السكان المحليين بـاسم ميـلاس Melas (قـراسـو) وثـانيهما بـاسم أثيراس Athyras ، ولقـد ازدادت ميـاههما بشكل تخطى بعيـداً المستوى المعتـاد، وغمـرت الجزء الأكبر من السهل، وجرفت المياه شطـراً كبيراً من الجيش الألماني بخيولهم وسلاحهم، واقتحمت المياه الخيم نفسها، وجرفتها أمامها من البر إلى البحر.

وعندما علـم الامبراطور بهذا تحركت نفسه اشفاقاً على الـرجال، وبعث بعـدد من الأعيـان إلى كـونـراد لمواسـاتـه بسبب النكبـة التي حلت بـه، ودعوته للمشاركـة في مباحثات وخطط تخص مسائل هامـة، وكان كونراد مـا يـزال حتى الآن غير راغب بـالتخلي عن كبريائه، وطـالـب أن يقـابلـه الامبراطور عنـدما يقترب من بيزنطة، وقـدّر أن محادثاته جديـرة بمثل هذا الاهتمام، ولدى ادراك الامبراطور أن غـروره لاحدّ له، تركـه وشأنه يخلد إلى الراحـة، وسارع كـونراد ومعه جميع قـواته، إلى بيـزنطة، وعنـدما وصل إلى المقـر الامبراطـوري مقـابل الأسـوار، والـذي يـدعـوه النـاس فيلـوبـاشن Philopation ، ولاأدري هل الاشـارة بهذه التسميـة إلى لطافـة المكان، (لأنه يوفر الراحـة والاسترخاء من المتاعب للذين يهربون إلى هناك فـراراً من صخب المدينـة) أو لأن أشجـاره وارفـة الظـلال، وأرضـه تنتج نباتـات خضراء غنية (وكـان المكان واسعـاً جداً، ويحمل من كل جـانب مظهر الخضـار) (٥٦)، ومن هناك أولى كـونراد انتبـاهه إلى أسـوار المدينة، وعنـدمـا رأى الأبـراج المرتفعـة إلى علـو شـاهق، وأبصر الحجم الكبير للخندق العميق الـذي يحيط بها، أصيب بالـذهول، وعندمـا رأى حشداً من النسـاء والسكـان يقفـون بـدون سـلاح وبـدون عمل، على الأبنيـة

الخارجية، (لأن جميع الذين كانوا يستخدمون في الأعمال العسكرية الصعبة، وقف بعضهم للحراسة فوق الأسوار الداخلية، ووقف الباقون أمام تحصينات المدينة، ينتظرون شروع الألمان بالقتال)، وعندما لاحظ هذه الأشياء، قرر على الفور أن المدينة مابرحت منيعة الجانب لفرط قوتها، التي كانت حقيقية، ولهذا انطلق من هناك بسرعة، وعبر الجسر، الذي يقوم على كتفي مايمكن للمرء أن يدعوه وصلة النهر البحري [القرن الذهبي] ووصل إلى واحد من الأرباض المواجهة لبيزنطة، التي كانت تدعى بيكريديون Pikridion [هاسكوي] (٥٧)، ويقوم هناك المجاز الطبيعي المعقول، ويكوّن بحر يوكسين Euxine [البحر الأسود] هناك خلفية من المياه، وذلك بدورانه إلى اليمين، في حين أن مساره نحو الغرب يشكل ميناء واسعاً للبيزنطيين، وهنا يتكوّن نهر يندفع في بعض الأمكنة عالياً ويجري بين السهول هناك، ثم يصل إلى رأس الميناء على مسافة قليلة من بيزنطة، ثم إلى المكان الذي يقوم عليه الجسر.

١٥ - هكذا كان الحال هناك، وعندما وصل كونراد إلى هناك بعث برسالة إلى الامبراطور، لم تكن في الحقيقة بعيدة عن الغرور، وجرى سياقها على النحو التالي:

«يتوجب على الامبراطور المتملك للذكاء، ألا يتفحص المشكلة في ذاتها، بل عليه أن يبحث في السبب الذي صدرت عنه، وكل من يعتمد على الأحكام المسبقة غالباً مايخفق في اصلاح ما هو جيد، ولايلوم بالطبع مايبدو أنه دنيء، وعلى عكس الرأي الرائج، يقابل الانسان أحياناً ببعض الترحاب من قبل الأعداء، غير أنه قد يعاني مجدداً من بعض سوء المعاملة من الأصدقاء، لاتعزو إلينا أسباب المضار التي أنزلت بأرضك من قبل بعض العامة في جيشنا، ولاتغضب لهذا السبب، حيث أننا أنفسنا لم نسبب مثل هذه الأشياء، لكن الغوغاء كانوا قادرين على فعل

ذلك بإرادتهم وهم مندفعون بلاضبط وراء شهواتهم، ثم إنه عندما يكون هناك جيشاً أجنبياً خارج بلاده يطوف ويتجول في كل مكان، جزئياً لاستطلاع الأرض، وجزئياً لجمع الحاجيات الضرورية، وقتها ليس من غير المعقول حدوث مثل هذه الأضرار على كل يد». هكذا قال الألمان.

أما الامبراطور الذي نظر إلى المسألة بشيء من الاستخفاف فأجاب كما يلي:

«لم يكن بعيداً عن ادراك امبراطوريتنا مسألة أن أهواء العامة يصعب دوماً التحكم بها وقيادتها، وفي الحقيقة إن ماكان موضع اهتمامنا هو وجوب جوازكم أنتم أيها الأجانب الغرباء لملكتنا دون أذى، ودون شكوى، أو بالحقيقة دون أن تعانوا أي أذى من قبلنا، خشية أن نكسب سمعة سيئة بين الناس بالتصرف بما هو مضاد لكرم الضيافة،وعلى كل حال، بما أن مثل هذه الأشياء واضح انها لاتستحق الملامة بالنسبة لك، ونظراً لأنك بارع جداً، وعظيم المهارة في البحث في طبيعة الأشياء على الوجه الصحيح، فنحن مدينون لك بالشكر، ذلك أننا سوف لن ننظر من الآن فصاعداً بكيفية وجوب كبح جماح العامة من شعبنا واندفاعها ضدكم، بل سوف نعزو ذلك إلى حماقة الغوغاء، طبقاً لما تعطفت ووجهتنا إليه، وعليه لن يكون من الآن فصاعداً نافعاً بالنسبة لك أن تأخذ الطريق مع الجيش بشكل جماعي، ولا التجول أيضاً في أرض أجنبية، وبالنظر إلى أن العامة مسموح لها بممارسة أهوائها في كل جانب، لأن ذلك صواب كما تقرر، لابدّ أن الأجانب سيكونون عرضة للمعاناة من السكان المحليين». بمثل هذه الأقوال أعاد الامبراطور الرسل.

ولمعرفة الامبراطور أن الجيش الروماني كان أقل عدداً من البرابرة، لكنه كان مكافئاً بالتفوق بالعلوم العسكرية والثبات في القتال، فقد خطط كما يلي:

أمر بروسـوك وباسيل زيكاندلس مع عدد آخر من القـادة الرومان، أن يقودوا قوة كـافية، وأن يتخذوا مواقع تواجـه الألمان، وقد اصطفوا كما يلي: وقف الجزء الأقل دربة من الجيش مع العـوام بعيداً إلى الأمام، على شكل أربع فـرق، وجاء بعـدهم الجنـد الأفضل تسليحـاً والدارعين، ثم الـذين امتطوا خيـولاً سريعة، ووقف أخيراً خلف خط المعركة الكـومان مع الترك وقوات النبالة الرومان، وعمل الـرومان على هذه الصورة، حيث أنه ما ان رأى الألمان هـذا حتى استولت عليهـم شدة الـرغبـة والفوضى، وزحفـوا مسرعين، وأعقب ذلك معـركة حادة، ووقع قتلى كثـر بين الألمان، ذلك أن الرومان قاوموهم بكفاية وقتلوهم.

وبقي كونراد متغطـرساً، ذلك انه لم يكن عـالماً بما حـدث، وكان مقوداً بآمـال عظيمة، ورغب الامبراطور بـالسخريـة من رعونته السـالفة، فكتب إليه مايلي:

«يتـوجب علينـا أن نـدرك تمام الادراك، أن الفـرس الـذي لايحتمل اللجـام لايفيد راكبـه، لابل حتى ربما لن يحملـه فـوق منحدر صخـري، وهذا الجيش الـذي أخفق في الاصغاء إلى آمريه، غـالباً مايورط قـادته في المهالك، وعلى هـؤلاء القادة عدم السماح لقواتهم بالسير حسـب أهوائها، غير انني لاأعـرف مـاالذي اعتراك من آلام، فلقـد ازدريت هـذا وأقنعت جلالتنا بذلك، ولقد كانت تعـاملك معاملة الصديق، ولتبقى محافظاً على مـوقفك نفسه، قـدّر الآن إلى أين قـادك السماح للغـوغاء من مصـاعب، ذلك انني عـرفت أن قطعـة صغيرة جـداً من الجيش الـرومـاني هي التي تصدت لأعداد هائلة من الألمان وعاملتهـم بكل قسوة ورجولة، والقاعدة هي أن الجيش الوطني والمحلي يكـون متفوقاً على الغربـاء الأجانب، وإذا لم يكن لدينـا رغبة في معاقبـة العامـة لعدم التزامهـا، كيف يمكننا ذلك؟ لقد سمحنا لهم باستئصالهم تماماً واستئصال عنفهم، لكن إذا مـاارتأيت، أن علينا معـاً كبح كلا الجانبين بمكبح رسمـي، وأن نوقف نـزوات الجند

نفعل، أما إذا كان هذا لايروق لك، فدع الأمور تبقى على ماهي عليه الحال في الوقت الحاضر، وبناء عليه بيّن لنا بوضوح ماالذي ينبغي صنعه».

١٦ - لقد ختمت كلمات الامبراطور على هذه الصورة، وبما أن كونراد لم يكن قد سمع بعد بما حلّ بالألمان، لم ير من المناسب الاهتمام بأي شيء من هذا، هو بالحري طلب أن ترسل إليه السفن الامبراطورية الحربية مع العبارات المعتادة، وأن يتولى ذلك الامبراطور، وذلك بغية استخدامها بالجوار، وهدّد انها إذا لم تصل إليه بسرعة، سيطوق المدينة في اليوم التالي بآلاف مؤلفة، وأغضب هذا الامبراطور، ومع ذلك كان مايزال غير راغب بالرد على هذا المتبجح، فتصبر إلى حد اللطف المصطنع، ولهذا كتب إليه وهاجمه بكلمات قاسية كما يلي:

«بالنسبة للذين هم قادرين على فحص الأمور بدقة لايحكم بالعادة على الأمور بالكم بل بالكيف، وبوساطة التفوق وسد الخلل، وبناء عليه ينبغي على المرء ألا يميز بين المتصارعين في الحرب بناء على العدد، بل بوساطة التفوق والممارسة والبراعة هناك، ولئن كان الجيش الذي يتبعك جيشاً كبيراً، إنه لايتفوق على الجيش الوطني إلاّ قليلاً، وصحيح أن الجزء الأعظم من الجيش المحلي مقسم وموزع بين أجزاء كثيرة من المملكة الرومانية، فإن الأصح أيضاً أن قوات كونراد قطيع من الدهماء، وأعداد كبيرة من غير العسكريين، هل يعتد بقطيع من الأغنام، تزهو بعشرات ألوفها، إذا ماصادفت أسداً واحداً متوثباً عليها تتبعثر، أولست غير مدرك أنك مثل عصفور تحت سلطتنا؟ أولسنا إذا مارغبنا، فإنك ستهلك مباشرة؟ خذ بعين التقدير أن الذين يمتلكون هذه البلاد هم الذين جاب أجدادهم بأسلحتهم جميع أنحاء الأرض، وأصبحوا سادة عليكم أنفسكم وعلى كل عرق آخر تحت الشمس، وقدّروا أيضاً أنكم لن تعلو متن السفينة الامبراطورية، ولن تنفذوا بيننا ماتسعون إليه، لكن أرجل

خيولكم سوف تحملكم عائدين على الطـريق نفسه، ويجب ألا تلومونا إذا مـاجعلنـامن أنفسنـا غير لطفـاء جـداً مـع الـذين رغبـوا بـاقتراف الاثم والعـدوان، لأن اقتراف الاثم والعدوان ليس مثل الأخـذ بالثأر والانتقـام، فـالأول يصدر عـن تقديـر خـاطىء، بينها يقـود الحذر إلى الآخر، ويعطينـا تملكنـا الماضي الحق بـاستحـواذ أي أرض سـوف تسترد من الأتـراك المجـاورين، وفي الحقيقـة سـوف يتملـك الـرومـان هـذه الأراضي بـدون صعوبة، والذي لم نستطع تحمله هو مطـالبة شعبنا [بمقاتلة الألمان]، ومع هذا سنجازف الآن بالعمل فوراً بالذي تحثنا على عمله».

وعنـدما سمع كـونراد بهذا، وعلم بـالوقت نفسـه بالبـلايا التي نـزلت مـؤخـراً بالألمان، اعتلى ظهـر عبـارة بـائسـة كـانت مـربوطـة هنـاك على الشاطىء، وجـاز مضيق داماليس(٥٨) Damalis ، وبسرعة وصل إلى الشاطـىء المقابل، ذلك أن واحـداً من البرابرة المعـاندين قاد الـرجل وأرشده، ومع أن البربـري يتباهى ويتفاخـر بلا حدود في حالات الـرخاء، لكنـه يتـواضع ويتـذلل في حـالات النكبـة أكثر من الـلازم، فقـد فكـر الامبراطور في اذلالـه أكثر، ففعل مايلي: لقـد أرسل عدداً من الـرومان إلى ساقة الجيش الألماني، فأفسدوا بالرشـوة عدداً لايحصى من أعيانه ليسحبوا ولاءهم لكونراد.

ومـا ان لاحظ كـونـراد هذا، لم يعـد كما كـان من قبل الـرجل الفـائق المهـارة، فكتب إلى الامبراطور يسـأله أن يبعث إليـه بـواحد مـن الرومـان ليقـوده على الطريق، ويـوجهـه بأمان، وجـرى ارسـال الذي كـان يشغل وظيفـة أكولاوثـوس(٥٩) Akolouthos ، ووجـــه للبحث في اقامة حلف مع كـونراد، وبعدما دخل الرومـان والألمان في نقاش طويل، توجب على كونـراد الموافقة على اقامة تحالف مع الامبراطـور، لكن مقابل ثمن كبير جداً، إذا مـاتوجب عليه الانضمام إلى الامبراطور في القتـال ضدّ الأتراك، وأخبر ستيفن (الأكـولاوثوس) كونـراد أن أمامه طـريقين، والذي

عليه هو أن يختار أيهما ليتابع سيره عليه، وبعدما تشاور كونراد مع أتباعه، رفض التحالف واختار الطريق الذي يقود إلى فيلوميلون.

وسار الألمان حتى وصلوا إلى ميلانغيا Melangeia ودوريليون Dorylaion [اسكي شهر] ولم يعق سبيلهم عائق مزعج، وعندما وصلوا إلى هناك هاجم تركي اسمه ممبلينز(٦٠) Mamplanes مع قوة صغيرة، مقدمة جيشهم، ليختبر قوتهم وليعلم أي نوع من النظام يتبعون، وعندما ظهر أمامهم للوهلة الأولى، زحف الألمان بشكل فوضوي، واستبد بهم حماس شديد وفوضى، واندفعوا نحوهم، وبما أن الألمان لم يكونوا بعيدين كثيراً عن معسكرهم، أدار الأتراك ظهورهم وتظاهروا بالفرار، وعندما أصاب الانهاك الفرسان الألمان، وباتوا بعيدين عن المعسكر، قام الأتراك بهجمات سريعة وقتلوا الخيول والرجال، وتكرر حدوث هذا الشيء نفسه مراراً، وألقى برعب لاحدود له في قلوب الألمان، وبات من الممكن آنذاك ملاحظة أولئك الذين كانوا مفرطين من قبل في الغرور، كيف أنهم عندما هوجموا بأسلوب وحشي لايمكن مقاومته، قد باتوا عاجزين بجبن وضعة عن فعل أي شيء أو التخطيط له، ثم إن كونراد (وكان شجاعاً في الحرب) اندفع ضد الأتراك، ففقد بشكل خاص الخيول السريعة التي أهداها له الامبراطور، وكاد نفسه أن يقع أسيراً في أيدي هؤلاء البرابرة.

١٧- وبينما كان الألمان في هذه الضائقة، كان [لويس السابع] ملك الفرنسيين (حسبما جاء بالتقارير قد عبر الدانوب وتقدم أكثر) قد عزم على ألا يصبح بالضرورة وقحاً مثل كونراد، فقد رحب باللذين قدما إليه من عند الامبراطور، وأقصد بذلك السيباتوس ميخائيل باليولوغوس، وميخائيل الذي كنيته براناس وبها يدعى، ووعد بحسن السلوك مع الامبراطور، ولوحظ انه لم يلحق أي أذى بالرومان منذ ذلك الحين، ولاأستطيع القول فيما إذا كان قد تلقى درساً مما أصاب كونراد من سوء

حظ، أم ان أخلاق الرجل كانت بشكل طبيعي هكذا! ولهذا أنهى حديثة مع الرسولين معبّراً عن بهجته للاستقبال العظيم من جانب الامبراطور، وعندما بات قريباً من بيزنطة، أرسل رسلاً إلى الامبراطور واعداً بمزيد من الصداقة، ووافق على التعاون معه في المسائل الهامة، وإذا كان من المفيد لهما الالتقاء مع بعضهما والاشتراك في بحث في القصر، لم يرغب في اهمال ذلك، وأصغى الامبراطور باهتمام إلى هذه الرسائل، ووجهه للقدوم مطمئناً.

ولدى وصوله، استقبله هناك رجال يمتون بصلة القرابة إلى الامبراطور وبالمكانة، وكانوا يحتلون وقتها أهم المناصب، وكان عليهم اصطحابه إلى الامبراطور في أبهة، ومنحه التشريف اللائق به، وعندما بات في داخل القصر، كان الامبراطور جالساً على عرش مرتفع، وقدم للويس مقعداً منخفضاً، وهو الذي يسميه الناطقون باللاتينية كرسياً، وبعدما جلس عليه تكلم وسمع ماهو مناسب، ثم غادر إلى الربض خارج الأسوار، الذي تسميه العامة —كما قلنا— فيلوباشن، ليقيم هناك، وذهب بعد وقت قصير مع الامبراطور إلى قصر بلاشرين في جنوب المدينة(٦١)، ليتفحص هناك الأشياء الجديرية بالتفحص، وليشاهد الآثار المقدسة في الكنيسة هناك، وأعني بذلك الأشياء التي كانت متعلقة بجسد المسيح، والتي هي علامات حماية ربانية للمسيحيين، وبعدما أنجز هذا كله في بيزنطة وأعطى العهود بالأيمان أن يكون صديقاً للامبراطور وحليفاً مادام حياً، عبر هو بدوره إلى آسيا(٦٢).

١٨- لقد كان هذا ماحصل، وقام الامبراطور بترقية شخص اسمه نيقولا وكنيته موزالون Mouzalon إلى عرش البطريركية(٦٣)، وكان منتمياً من قبل إلى النظام الرهباني، لكنه بعدما تسلم عرش الكنيسة القبرصية، استقال عن طواعية منها، لكنه ما ان تولى الادارة حتى انفتح كل فم ضده، وادعوا انه اعتلى العرش بشكل غير شرعي،

بسبب أنه تخلى من قبل عن الرهبنة وعن الكنيسة المعينة له، وكان في البداية عنيداً وغير راغب بالتخلي عن العرش، لكن ماإن اتخذ الامبراطور قراراً حول المسألة، حتى أدرك [موزالون] أنه اختار الجانب الخاسر، ودون أن ينتظر فحصه ثانية، تخلى عن العرش، وتابع العيش بمثابة فرد عادي، وعين مكانه ثيودوتوس Theodotos ، الذي كان عميق الخبرة في النظام الصوفي(٦٤).

وكما ذكرنا من قبل، كان الألمان قد هزموا مراراً من قبل الأتراك، وفقدوا كثيراً من رجالهم، وما ان تخلوا عن المرور خلال فيلوميلون، حتى سارعوا بالعودة، ولدى وصولهم إلى نيقية [إزنيق] التقوا هناك بالفرنسيين الذين كانوا سائرين على الطريق، والتقوا أيضاً بالملكين الآخرين اللذين كانا قد أحضرا معهما قواتاً كبيرة:

وكان واحد منهما يحكم أمة التشيك، وكان فيما يبدو، قد عين ملكاً من قبل كونراد، وكان الآخر ملك البوليسيين، الذين كانوا شعباً سكيثيا Scythie ، وقطنوا إلى جانب الهنغار الغربيين(٦٥).

وعندما اتحد الجيشان معاً، تردد بشكل مكشوف كلمة عابرة اعتاد الفرنسيون على استخدامها وتلفظها واطلاقها على الألمان، ومعناها شيء يشبه «الفقاعة الألمانية» (٦٦)، ولما كان لهذا الشيء أصله الصادر عنه، فسأبينُ ذلك على الفور:

إن أسلوب هاتين الأمتين في القتال ليس نفسه، فالفرنسيون قادرون بشكل خاص على امتطاء ظهور الخيل في نظام جيد، والقتال بالرمح، وخيالتهم متفوقة على الألمان بالسرعة، والألمان —على كل حال— أقدر على القتال على الأقدام وأفضل من الفرنسيين، وهم ممتازون في استعمال السيف الكبير، ولذلك عندما كان الألمان يقومون بحملات عسكرية ضد الفرنسيين، فإنهم كانوا يرتابون بقدرة خيالتهم، ويصرّون على خوض

الحرب على الأقدام، وكان الفرنسيون يواجهون خيالتهم غير المنتظمة ويهزمونها، وبعدما كانوا يطاردون القسم الأكثر خبرة من الألمان، كانوا يعودون بالكرة على الذين يسيرون على الأقدام، ومع انهم كانوا أقل منهم كثيراً بالعدد، كانوا يسخرون منهم بالعبارة السالفة الذكر، لأنهم في الوقت الذي من الممكن لهم فيه القتال مع الخيول كانوا يختارون الحرب على الأقدام، وكما قلنا تكرر اطلاق ذلك من قبل الفرنسيين على الألمان، مما أغضبهم كثيراً.

وبناء عليه، وبسبب أن المخاطرة في أخذ المركز الثاني بعد الفرنسيين على الطريق كانت تهددهم، فإنهم ساروا معاً(٦٧) حتى فيلادلفيا، وعندما لم يعد كونراد قادراً على تحمل السخرية منه من قبل الفرنسيين، قرر العودة، فكتب إلى الامبراطور وكشف له عن خطته، ولما كان مانويل يرغب في انفصال الملكين عن بعضهما بعضاً، ولتعاطفه مع الرجل، أجابه بما يلي:

«ينظر الرجال الذين يدعون أنهم ازدادوا حكمة بالعادة إلى المسائل، ليس وفقاً لدورة الحظ، بل على انفراد، بعيداً عن التبدلات المفاجئة، ولهذا عندما كنت موفقاً محظوظاً، قررنا عدم معاملتك فوق قدرك وقيمتك، والآن بما أنك في حالة بائسة جداً، إننا لن نتردد بالترحاب بك عائداً مع الأشياء نفسها التي كنا متشوقين للقيام بها على شرف قريب، وحاكم لأمم كثيرة، ولنتشاور معاً تجاه الأوضاع الحاضرة، على أساس الأسباب المذكورة، وكذلك لأننا ندين بدين واحد، وبالنسبة لك لاأدري كيف استهترت، ونظرت بقليل من الأهمية نحو ماكان يمكن أن يكون مفيداً لك، واخترت شيئاً أقل فائدة، لكن طالما انه من غير الممكن تغيير ماقد حدث، تعال إلينا بدون ابطاء، ودعنا نفكر، على الوجه الأفضل، ماالذي بقي ممكناً لنا، وماالذي لم تخسره حتى الآن، للحظ ميزة التغيّر المستمر، وهو لم يقف قط جامداً، فإذا ما جنى أحدهم في البداية شيئاً،

من الممكن له أن يمتلك الكل، لكـن ماهلك في الماضي، من غير الممكن إعادته ثانية، ومادامت أمورك ممكن اصـلاحها بطريقة ما، أسرع للامساك بما هو سيكون مفيداً لك».

١٩- على هذه الصورة انتهت الرسالـة. وكان كونراد قد أدرك من قبل حماقتـه، ولكن بما أنـه لم يعـرف ماالـذي ينبغي فعلـه، تبع بـدون ارادتـه الفرنسيين، ولدى وصـول رسالة الامبراطور إليـه، آمن أن هذا الحدث جزء من الحظ، فتقبل نصـائحـه بـالسرور وعـاد مسرعـاً، ولـدى وصـولـه إلى الهالسبونـت، جاز إلى تـراقيا بالعبّـارة من هناك، وقـابل الامبراطـور الذي كان مقيماً هنـاك، وعاد إلى بيزنطـة معه [شتـاء١١٤٧-١١٤٨]، وتتابعت هنـاك أعمال التسلية الـواحد تلـو الآخر: مسـاكن امبراطوريـة، ومشاهـد متنوعـة، وسباق خيل، واستقبالات فخمـة، وبذلك زال ارهاقـه الجسدي ونقه.

وبعــدمـا زود بما يكفـي من المال، انطلق إلى فلسطين مع عــدد من السفن الحربية، وقاد سفينتـه نقفور داسيوتس Dasiotes ، وأمن بقية الخدمـات، والتقى هنـاك ببقية الملـوك، وأدى طقوسـه المطلوبـة عند ضريح المسيح المانح للحيـاة، وبينما انطلق الآخرون كل منهم نحـو وطنه بخير مـايمكن، رحل هـو من هنـاك مع السفن المشـار إليها، ورسـا عنـد سـالونيك، ورأى الامبراطـور هنـاك للمرة الثـانية، واشترك مجدداً معـه في مناقشـات ومحادثات، وذكـره الامبراطور بما جـرى الاتفاق عليـه من قبل، وكان هذا قـد قضى بأن تعود ايطاليا [أي أبوليـا وكالبيرا] إلى الامبراطورة [بيرثا] ايـرين، لتكون هديـة زواجها [بائنة] لأنها كـانت قريبة [كـونراد] وهـو الـذي خطبها إلى الامبراطـور، وبعـدمـا وثق هو وفـردريك اتفـاقهما بـالأيمان الاضـافيـة، غـادرا الأراضي الرومـانيـة، ذلك أن أعمال كـونـراد واجهت نهايتها هناك [شتاء١١٤٨-١١٤٩] (٦٨).

ووقع شيء —كما يلي— للملك الفرنسي أثناء عودته من فلسطين [١١٤٩] مع سفن رست هناك بأعداد كبيرة، فقد عرض للنقل بالأجرة إلى اوروبا لأشخاص رغبوا بذلك، وكانت هناك سفن صقلية طافية على وجه الماء في تلك الجوار، وكانت هذه السفن قد قامت من قبل بالاغارة على الأراضي الرومانية، وكان هناك أسطول روماني يقوده كوروب Chouroup ، قد قابل هذه السفن وقام بمهاجمتها، وبينما الأسطولان يتحاربان، حدث أن أبحرت سفينة الملك إلى وسطهما، ولما كان الرومان متفوقين بالقتال، كاد الملك أن يقع بالأسر، للسبب التالي:

كان عندما —كما ذكرنا— التقى بالسفن الصقلية، نزل من سفينته، وصعد إلى ظهر مركب صقلي، ولولا أنه عندما شعر بالخطر، تمّ رفع علم واحد من حلفاء الرومان، لكان سقط سريعاً في أيدي القوات الرومانية، وبعدما فقد عدداً كبيراً من أتباعه الذين أصبحوا ضحايا الحرب، جرى انقاذه نفسه بصعوبة، وما ان قام بتقديم شكوى إلى الامبراطور، حتى كسب حرية الأسرى، واستعاد كل ماكان قد أخذ منه، وعلى هذه الصورة انتهى تدخل الأمم الغربية في الأراضي الرومانية(٦٩).

٢٠- وبعد عودة كونراد إلى بلاده مالبثت أن وافته منيته، وذلك دون اكمال انجاز أي شيء مما وعد به الامبراطور، ووصل إلى السلطة بعده فردريك(٧٠)، لكن لماذا آلت مملكة كونراد الألمانية إلى فردريك، سنقدم الرواية التالية:

قام الملك الألماني هنري [الخامس] بسجن أبيه [هنري الرابع] وهو على قيد الحياة، وهو الذي أشعل الحرب مع أسقف روما [البابا باسكال الثاني]، وهو أيضاً استولى على الملك بشكل غير شرعي، ولهذا السبب انتقم الألمان منه، عندما مات، حيث قرروا عدم منح السلطة لأولاده، (كان أولاده كونراد هذا ووالد فردريك) (٧١)، بل استدعوا إلى السلطة

رجلاً عجـوزاً هو لـوثر (٧٢)[الثـاني]، ومنحوه السيـادة على الألمان، ولكن بما أن الآخريـن [كونراد وفردريـك الأكبر] لم يستطيعا تحمل حرمـانهما من ملكهما الموروث، قـررا محاولـة الثـورة، وعنـدمـا عـرف لـوثـر بهذا، وكـان بـالحقيقة عجـوزاً، ومتقدمـاً بالسـن كثيراً، كما كان يمتلـك طبيعة نبيلـة، ولايعرف كيـف يتكلم ويعمل إلاّ ببساطـة، وافق على نقل الملـك منه لهما عندما يتوفى، وإثـر وفاته، آل الملك الموروث إلى أسن الأخويـن، وأعني به والد فردريك، مـع ذلك بما أنه كان مصاباً بـالجرح في إحدى عينيه، فقد اختار أخاه كونراد عوضاً عنه، ووافق كـونراد في البداية، بعدما أقسم، أنه عندمـا توافيه المنيـة سينقل السلطة إلى فـردريك الأصغـر، لذلك عنـدما كان —كما ذكـرنا— على فراش الموت، وضـع التاج على رأس فـردريك، ومضت هـذه الأمور على هـذه الصورة تقـريباً، وإثـر ذلك كـانت بـداية الحروب الصقلية.